اللجنة

رواية

صنع الله ابراهيم

اللجنة

صنع الله ابراهيم

رواية

الطبعة الاولي : دار الكلمة ، بيروت ، ربيع ١٩٨١
الطبعة الثانية : مطبوعات القاهرة ، ربيع ١٩٨٢
ملحوظة : تتلافى هذه الطبعة أخطاء الطبعة البيروتية وخاصة فى الاسماء الواردة على صفحة ٩٥ •

الغلاف واللوحات الداخلية للفنان **صلاح عنانى**

١

بلغت مقر اللجنة فى الثامنة والنصف صباحا ، قبل نصف ساعة من الموعد المحدد لى · ولم أجد صعوبة فى العثور على الغرفة المخصصة لمقابلاتها · وكانت فى طرقة جانبية هادئة ، كابية الضوء ، يقف أمامها عجوز فى سترة صفراء نظيفة ، تنطق ملامحه بالطمأنينة التى تغشى وجوه من يرفعون راية الاستسلام عندما يجدون أنفسهم فى نهاية المطاف ، فينسحبون من صخب الحياة والصراع الدائر على مظاهرها الفانية ·

أفضى الى الحارس بأن أعضاء اللجنة لا يتوافدون عادة قبل الساعة العاشرة · ووجدت ذلك أمرا طبيعيا ، رغم أنه ضايقنى · وندمت لأنى التزمت بالموعد المحدد بالضبط ، فغادرت فراشى مبكرا دون أن أنعم بقسط كاف من النوم ·

لم يكن هناك مقعد غير الذى يجلس عليه الحارس ، فوقفت الى جواره ، ووضعت حقيبتى « السامسونايت » على الارض ، ثم قدمت اليه سيجارة وأشعلت لنفسى أخرى · كان قلبى يدق بعنف طيلة الوقت ، رغم محاولاتى للتماسك والسيطرة على اعصابى · وكررت لنفسى اكثر من مرة أن اضطرابى سيفقدنى

الفرصة المتاحة لى ، اذ سأعجز عن تركيز انتباهى وهو ما أحتاج اليه بشدة فى المقابلة القادمة ٠

ضقت بالوقوف بعد قليل ، فحملت الحقيبة فى يدى ، ومضيت فى الردهة الطويلة حتى نهايتها ٠ ثم استدرت عائدا وعينى على باب الغرفة ، خشية أن تكون اللجنة قد وصلت واستدعتنى ٠ لكن الحارس كان مايزال جالسا فى مكانه ، يحدق أمامه بدعة ، وهو يحرك فمه الخالى من الانسان كأنما يلوك شيئا وهميا ٠

عدت أذرع الطرقة جيئة وذهابا وأنا أتطلع الى ساعتى بين الفينة والاخرى ٠ وكانت عقاربها قد اقتربت من العاشرة والنصف عندما رأيت الحارس ينتفض واقفا ويضع سيجارته على الارض اسفل المقعد ، ثم يدير مقبض باب الغرفة ويفتحه بحذر ، ثم يختفى وراءه ٠

أسرعت أتخذ مكانى الى جوار مقعد الحارس وقلبى يدق أسرع من ذى قبل ٠ وتوقعت أن يطلب منى الدخول عندما يخرج ، لكنه لم يفعل ، وانما عاد الى كرسيه بعد أن تناول سيجـــارته ، وواصل التدخين فى هدوء ٠

حزمت أمرى أخيرا وسألته بلطف عما اذا كانت اللجنة قد وصلت ، فقال :

« واحد منهم فقط ٠ »

تساءلت : « لكنى لم أر احدا يدخل الغرفة ؟ »

أجابنى : « هناك باب آخر يدخلون منه ٠ » ٠

بقيت واقفا الى جواره نصف ساعة ، تتابع خلالها وصول اعضاء اللجنة عن طريق الباب الداخلى · ومضى الحارس عدة مرات الى البوفيه ليحضر لهم القهوة · وفى كل مرة كنت أحاول اختلاس النظر داخل الغرفة ، لكنه كان يحرص دائمـــا على ألا يكشف البـــاب الا عن فرجة يسيرة تسمـــح له بالدخول ، بعد أن يحشر نفسه خلالها ، دون أن تكشف لى عن شىء ·

وفى احدى المرات برز من الغرفة وهو يحمل فى يده حذاء جلديا · ونادى على ماسح احذية يقف فى نهاية الردهة ، فأعطاه الحذاء · وعندما أراد هذا ان يقتعد الأرض قرب البـــاب ، نهره الحارس وأشار اليه أن ينتحى بعيدا حيث كان يقف ·

عاودت السير وأنا أنقل حقيبتى من يد الى أخرى · كنت متعبا لأنى لم أنم جيدا بالامس رغم الحبة المنومة التى تناولتها · ولهذا السبب كان هناك صداع خفيف يحوم عند مؤخرة رأسى · ولم اكن قد حسبت حسابا لهذا الطارىء ، رغم أنى لم أفعل شيئا طوال العام الماضى كله سوى الاستعداد لاحتمالات اليوم · ولم أجرؤ على مغادرة مكانى بحثا عن مسكن ، خشية أن تستدعينى اللجنة خلال ذلك

اقتربت اثناء سيرى من مكـــان ماسح الأحذيـــة الذى أقبل ينظف بحماس حذاء اللجنة -(هكذا أسميته فى سرى وأعجبتنى التسمية حتى انى ابتسمت) · ورأيته قد انتهى من تلميع وجه الحذاء ، فقبله ومضى يطلى نعله السفلى ·

استدرت عائدا الى حيث يجلس الحارس ، فوضعت حقيبتى الى جواره على الأرض ، وناولته سيجارة ثم أشعلت واحدة ، وبقيت الى جواره أدخن · ولم يلبث الماسح أن انتهى من الحذاء ،

فأحضره الى الحارس الذى تناوله بعناية وحمله الى الداخل • وخرج بعد قليل حاملا صينية امتلأت بفناجين القهوة الفارغة ، فمضى بها الى البوفيه ، ثم عاد الى مكانه فوق الكرسى •

ولما كنت أنا الوحيد الذى ستستقبله اللجنة اليوم ، لسبب بسيط وهو أن الساعة أشرفت على الحادية عشرة والنصف ، دون أن ينضم الى أحد ، فقد خطر لى أنها تناقش أمرى الآن • وكانت هذه فكرة مزعجة للغاية • لأن معناها ، ببساطة ، أن تتكون لديها صورة مبدئية عنى • واذا كانت هذه الصورة سلبية ، وهو الاحتمال الغالب لاسباب عديدة ، فان ذلك من شأنه أن يضيق من فرصة التأثير الذى يمكن أن أحدثه عندما أمثل أمامها • كنت أعرف أن لديها تقارير كافية عنى ، ومع ذلك فقد فهمت أن مصيرى يتوقف على المقابلة القادمة • وليس معنى هذا أنى الذى سعيت الى هذا اللقاء ، وانما قيل لى أنه لا مندوحة منه • ولهذا جئت •

وعند الظهر تماما ، دخل الحارس الغرفة ، ثم خرج على الفور وسألنى عن اسمى • وعندئذ أشار الى بالدخول •

تناولت حقيبتى بيدى اليمنى ، وبيدى الاخرى تحسست رباط عنقى لأتأكد من أنه فى المكان الصحيح • ورسمت على وجهى ابتسامة واثقة ، ثم وضعت يدى على المقبض الأبيض المصنوع من الخزف ، الذى تطلعت اليه عشرات المرات فى غضون الساعات الثلاث الماضية ، وأدرته دافعا الباب الى الداخل ، وولجت الغرفة •

وللوهلة الاولى ارتكبت غلطتين •

ففى اضطرابى ، الذى جاهدت عبثا أن أخفيه ، نسيت أن أغلق الباب خلفى • وعندئذ سمعت صوتا نسائيا بالقرب منى يقول بلهجة رقيقة :

« اغلق الباب من فضلك » ٠

اندفع الدم حارا الى وجهى ، واستدرت الى الباب ، فأمسكت مقبضه بيدى اليسرى ودفعته الى الخارج ، لكنه لم ينغلق ٠

كان المصراع قديما يتطلب اغلاقه قليلا من الضغط ٠ وكانت يدى اليمنى مشغولة بالحقيبة ، فاستخدمت ركبتى للضغط عليه ، بينما تصبب العرق على جبينى ٠

عندئذ سمعت نفس الصوت النسائى الرقيق يقول :

« ضـــع الحقيبة على الأرض واستخدم يديك الأثنتين » ٠

وأدركت أنى خسرت الجولة الأولى ٠

كنت أعرف أن اللجنة ستوجه الى بعض الاسئلة ٠ لـكن هدفها لم يكن قاصرا على تبين مدى معلوماتى ، وانمـا يمتد الى استكناه مفاتيح شخصيتى وحجـم قدراتى الذهنيـة ٠ فمضمون الاجابة ليس هو كل شىء ، رغم ماله أيضا من وزن ، والأهم ، منه هو القدرة على المواجهة ٠

وكما سبق أن قلت ، فقد قضيت العام الماضى فى الاستعداد لهذا اليوم بشتى الوســائل ٠ فعكفت على دراسة اللغـة التى تستخدمها اللجنة فى مقابلاتها ، وراجعت معلوماتى فى مختلف المجالات ، فقرأت فى الفلسفة والفن والكيمياء والاقتصاد ٠ ووجهت الى نفسى عشرات الاسئلة المتباينة ، وأنفقت اياما وليال فى البحث عن اجاباتها ٠ وتابعت برامج الذكـــاء والفوازير التى يذيعهـــا التليفزيون ، وراجعت الابواب المماثلة فى الصحف والمجلات ٠ وأسعفنى الحظ عندما اكتشفت أن اخى ، الذى يكبرنى بعشرين عاما ، يحتفظ لديه ، فى حزمة يضمها خيط من المطاط ، بمجموعة « صدق او لا تصدق » الكاملة ، منذ بدأ نشرها قبل ثلاثين عاما ٠

ولم أكتف بهذا ، فحاولت أن أكون فكرة واضحة عن عمل اللجنة ، بالبحث عمن مثلوا أمامها من قبل · ورغم ثقتى من كثرتهم فانى لم أتوصل الى غير قليلين منهم ، نفى أغلبهم أنه تقدم الى اللجنة فى يوم من الايام ، بل أنكر معرفته بوجودها · وتذرع الآخرون بأنهم نسوا تفاصيل ما جرى معهم ، فجاءت أقوالهم عائمة ، متضاربة · ولم تساعدنى الشذرات الاخرى التى التقطتها من مصادر مختلفة على استخلاص شىء · الأمر الوحيد الذى خرجت به ، أنه ليس ثمة قاعدة محددة لعمل اللجنة ·

وعندما سعيت لجمع المعلومات عن أعضائها ، لعلى أستطيع تكوين فكرة عن اتجاهاتهم وميولهم ، وجدت ستارا من السرية المحكمة قد أسدل على أسمائهم ومهنهم · وكان كل من سألته عنهم يتطلع الى فى وجوم واشفاق بالغين ·

لكن الجميع اتفقوا على أن اللجنة تنصب شراكا ماهرة لكل من يمثل أمامها · ومعنى هذا أن حكاية الباب واغلاقه لم تكن مصادفة · فهى قد كشفت لهم ، والمقابلة لم تبدأ بعد ، عن ارتباكى وقلة حيلتى ·

ولكم أن تتصوروا حالتى بعد هذه التجربة الفاشلة ، وقد وقفت أمامهم غارقا فى عرقى · لكن أغرب ما فى الموضوع أنى لمست فى أعماقى شعورا بالارتياح لهذا الفشل · كأنما كان ثمة جزء من نفسى يخشى على نفسه من نجاحى · ولم يحل ذلك دون اضطرابى او رغبتى الجارفة فى كسب رضاء هؤلاء الذين اصطفوا أمامى الى مائدة طويلة بعرض القاعة ·

كان عددهم كبيرا حقا · ولأنى كنت عاجزا عن التركيز ، فلم أتمكن من احصائه بالضبط · وكان بعضهم منهكما فى أحاديث

جانبية هامسة ، والبعض الآخر يتصفح اوراقا أمامه · وأغلبهم يضع عوينات سوداء كبيرة على عينيه · وخيل الى أن بينهم وجوها مألوفة ، طالعتنى من قبل على صفحـات الجـرائد والمجلات · واكتشفت أيضا أنى أعرف صاحبة الصوت الرقيق ، فهى عانس التقيت بها فى احدى المناسبات · ولمت نفسى على أنى لم أولها ـ حينذاك ـ شيئا من الاهتمام · وكانت تتطلع الى الآن بابتسامة خلت أنها ودية ·

ولم أدهش عندما رأيت بينهم ثلاثة من العسكريين · وكانت الشرائط الحمراء الموشاة بالذهب فوق ياقات ستراتهم تنطق برفعة شأنهم ·

وكان يتوسطهم عجوز متهالك ، ذو عوينات طبية سميكة ، قرب منها ورقة فى يدة ختي أوشكت أن تلامسها ، واستغرق فى محـاولة القراءة · وقدرت أن الورقة تنتمى ولا شك الى الملف الخاص بى ·

فرغ العجوز من القراءة ، أو لعله يئس من المحاولة ، فوضع الورقة على المائدة ، واستدار بوجهه ناحية اليسـار ثم نـاحية اليمين ، فأدرك زملاؤه أن الجلسة بدأت ، وكفوا عن الكلام وهـم يـ سلطون نظراتهم على ·

تعلقت عيناى بشفتى العجوز · وبدا لى وجهه الشاحب أبعد مايكون عن الحياة ·

خاطبنى قائلا : « فى بداية هذا اللقـاء ، أحب أن أسجل تقديرى ، الذى يشاركنى فيه زملائى ، لاختيارك المجيء الينـا · وليس معنى هذا أننا سنأخذ ، حتما ، بوجهة نظرك · فهذا أمـر يتوقف على أشياء كثيرة ، ونحن هنا اليوم لنحسمه · انمـا ما أردت أن أوضحه فهو أن المثول أمام لجنتنا ، كما يعلم الجميع ، ليس اجباريا · ففى هذا العصر يتمتع كل انسان بحرية تامة فى

الاختيار · ويعكس هذا الاختيار من جانبك قدرا كبيرا من سلامة التفكير ونفاذ البصيرة · وهو مؤشر هام سنأخذه فى اعتبارنا عندما نبحث حالتك · الا أننا نود أولا أن نسمع وجهة نظرك فى هذا الشأن » ·

كنت أعرف مما سمعته من مختلف المصـــادر ، أن اللجنة تطالب الماثلين أمامها دائما بعرض للاسباب والدوافع التى حملتهم على التوجه اليها · ولهذا السبب أعددت الاجابة مقدما ·

وكنت قـد توقعت أن تكون اللجنـة على ادراك بأنى سأفعل ذلك ، ولهذا فكرت طويلا قبل أن أستقر على الاجابة الضرورية · فلم أشأ أن أقدم اليهم اجابة مبتذلة سمعوها من قبل ، هدفها الظاهر هو تملقهم ، انما أردت أن أقدم اليهم اجابة متميزة ، تبدو بسيطة وتلقـــائية ، كأنمـــا فوجئت بالسؤال ، وتنطق بشىء من الامـــانة والصدق ، أعطى فيها صورة دقيقة عن نفسى ، دون أن أتورط فى الحديث عن أشياء معينة ، مثل الدوافع الحقيقية لبعض الافعال ، وانما أشير الى هذه بطريقة تخلى مسؤليتى عن كل ما من شأنه أن يسىء الى ، وتجعلهم يستنتجون ما أتصور أنه سيلقى قبولا لديهم ·

وكانت تلك فى الواقع مهمة شاقة للغـــاية ، بالنظـــر الى ما لديهم من وسائل خاصة وامكانيات واسعة ، تتيح لهم معرفـة كل شىء عنى ·

بلعت ريقى عدة مرات ثم شرعت أتكلـم ، وخـــرج صوتى خافتا ، فمال العجوز الى الامام واضعـــا يده على أذنـــه اليمنى وقال :

« عفوا · انى لا أسمع جيدا باحدى أذنى · فهل لك أن ترفع صوتك ؟ » ·

أذعنت لطلبه ومضيت أبسط الاجابة التى أعددتها من قبل ·
وغنى عن البيان أنى نسيت جزءا كبيرا منها بسبب اضطرابى من ناحية ، وصراعى مع لغتهم ـ كى لا أرتكب اخطاء فادحة فى قواعدها ـ من ناحية أخرى ·

المهم أنى رسمت لهم صورة عامة لنشأتى ، والمسار الذى اتخذه تطور حياتى وفقا لظروف لم يكن لى فيها خيار كبير ، وان كنت مسوقا أيضا باحلام عريضة ، وبالرغبة فى تنمية مواهبى واستغلالها على أحسن وجه · ولم يفتنى أن أنوه بالمثل والمبادىء الاخلاقية التى كنت أسترشد بها ·

انتقلت بعد ذلك الى المحنة التى وقعت لى وعرضتنى للمرض، وقلت أن مرضى ، فى الغالب ، كان نتيجة للتباين الشاسع بين طموحاتى وقدراتى الحقيقية ، وأنه أدى بى الى أن أضيق ذرعا بكل شىء ، حتى لم يعد أمامى من مخرج سوى أن أغير حياتى تغييرا تاما ·

وأشفعت حديثى بحركة مسرحية تدربت عليها ، اذ تناولت حقيبتى وفتحتها ، ثم أخرجت منها مجموعة من الشهادات التى حصلت عليها من مصادر مختلفة ، تنوه بكفاءاتى ، وتؤكد صحة المعلومات التى قدمتها عن نفسى ·

ولما كانت أغلب هذه المواد باللغة العربية ، فقد انطلقت أتحدث عنها بلغة اللجنة ، فاستمعوا الى باهتمام وهم يتصفحون الاوراق التى وضعتها أمامهم · لكنى لاحظت أن العضو الجالس الى يسار العجوز ، وهو أشقر الشعر ملون العينين ، لم يعبأ بهذه الشهادات ، وانهمك فى تصفح ملف يضم ولا شك التقارير السرية بشأنى ·

رفع عضو قصير القامة قبيح الوجه رأسه نحوى ، وكان يجلس الى يمين الرئيس ، بينه وبين أحد العسكريين ، وخاطبنى فى لهجة عدائية :

« أنا لا أستطيــع أن أفهمك · فأنت فيما يبدو قطعت شوطا بعيدا · وها أنت في هذه السن تسعى وراء بداية جديدة · ألا تظن أن الوقت قد فات لذلك ؟ » ·

أجبته بلهفة : « ان الكثيرين يبدأون حياة جديدة بعد الأربعين· ثم أنها ليست بداية جديدة بمعنى الكلمة ، وانما هى تتويج للمسيرة السابقة ، واستثمار شامل للامكانيات المختلفة التى أملكها ، ومن زوايا عديدة يمكن اعتبارها تطورا طبيعيا لشخصيتى » ·

همهم القصير غاضبا · وعجبت لحقده على · وأحسست احساسا مبهما ، أنى أثرته عندما أبرزت مواهبى ، ودللت عليها بالشهدات الصادرة من جهات محترمة ذات نفوذ ·

وتتبعت هذا الخط من التفكير ، فقدرت أنه ربما وقف موقفى فى صدر شبابه ، وأجازته اللجنة ، لكنه فشل فى تحقيق الآمال المعقودة عليه ، وانتهى به الأمر الى أن يكون مجـرد عضو من أعضائها · ذلك أنه بالرغم من خطورة اللجنة وضخامة نفوذها ، فان البعض ، وأنا منهم ، يعتبرون عضويتهـا دليلا على نضوب الموهبة والفشل التام ·

تكلمت احدى السيدات وهى عجوز وقور ، كانت تجلس فى أقصى اليسار ، الى جوار رجل بدين يرتدى سترة بيضاء ويضع ساقا على ساق رافعا رأسه الى أعلى محدقا فى السقف كأنه ليس معنا · سألتنى :

« هل تعرف الرقص ؟ » ·

أجبت : « أجل ، بالطبع » ·

فتدخل الرجل القصير الغاضب قائلا :

« أرنا اذن » ٠

سألته : « أى أنواع الرقص ؟ » ٠

وأدركت أنى أخطأت بالسؤال ٠ أى نوع من الرقص حقيقة ! كما لو كان ثمة غيره ٠

تصرفت بسرعة وبراعة طمعت فى أن تشهدا لصالحى ٠ فعندما لم أجد ما أحزم به وسطى ، خلعت رباط رقبتى ، وعقدته حول خصرى فوق عظام الحوض مباشرة ، حيث يتمتع الجسم بمرونة بالغة ٠ وراعيت أن أجعل العقدة على الجانب ، كما تفعل الراقصات المحترفات ، وسرعان ما اكتشفت أن لهذا الوضع ميزة كبرى ، فهو يكاد يفصل البطن عن الردف ويعطى لكل منهما قدرة كبيرة على الحركة المستقلة ٠

انطلقت أهز وسطى وأنا أرفع كعبى قدمى قليلا عن الأرض ، متطلعا اليهما من فوق كتفى بينما أشرعت ذراعى الى أعلى وشبكت يدى فوق رأسى ٠ ورقصت فى حماس بعض الوقت ، بل حاولت أن أطرقع بأصابع يدى ، بعد أن ضممت سبابتيهما ٠ وكنت منهمكا فى ذلك فلم أعرف انطباع الأعضاء ٠

تكلم الرئيس الذى لا يسمع ولا يرى ، فجأة قائلا وهو يلوح بيده : « كفى » ٠

عندئذ مال أحد العسكريين ، الذى كاد وجهه يختفى تماما خلف عوينات سوداء كبيرة ، وخاطبنى قائلا :

« اننا نعرف من الاوراق التى أمامنا كل شىء تقريبا عنك ٠ لكن هناك شىء واحد ما زلنا نجهله ، وهو أين كنت فى ذلك العام ٠ فهل لك أن تخبرنا ؟ » ٠

تشاغلت بنزع رباط عنقى عن خصرى وعقده حول رقبتى وأنا أفكر بسرعة فى العام الذى يعنيه • ففى حدود معرفتى بلغة اللجنة ، لم يكن اسم الاشارة الذى استخدمه يشير الى العام الذى نحن فيه • وطالما أنه لم يذكر عاما بعينه ، فلا بد أنه تعمد ذلك ، وبهذا يكون الامر شركا نصب لى ، خاصة وأنى لا أتصور أن يكون ثمة نقص فى التقارير المرفوعة عنى •

لم يكن فى وسعى أن أستفسر عن العام الذى يقصده ، والا أكون قد وقعت فى الفخ • وتعين على أن أحدده بمفردى وباسرع مايمكن •

بدت لى المسألة صعبة للغاية ، وقررت أن المخرج الوحيد هو أن أستبعد بعض الاعوام المحتملة مثل ٤٨ و ٥٢ ، على أساس عمرى فى ذلك الحين ، وبذلك أضيق من دائرة البحث • بقيت أمامى أعوام ٥٦ و ٥٨ و ٦١ و ٦٧ • وقبل أن ينتابنى اليأس خطرت لى اجابة موجزة لا تبعد عن الحقيقة كثيرا •

قلت : « فى السجن » •

ويظهر أن اجابتى ، على ايجازها ، كانت مفحمة ، فلم يسألنى أحد شيئا ، وتبدد جانب من الجو العدائى الذى جابهنى فى البداية ، او هكذا خيل لى • وان كنت قد احترت فى تفسير النظرة التى لمحتها فى العينين الملونتين للعضو الاشقر • وهيىء لى أن بها شيئا من السخرية •

رأيته يخط بقلم أحمر على ورقة أمامه ، ثم مال على الرئيس العجوز وهمس له شيئا فى أذنه اليسرى التى تجيد السمع ، وهو يناول الورقة للقصير •

خاطبنى الرئيس فى لهجة حازمة :

« لقد استمعنا منك الى حديث طويل عن مواهبك وقدراتك . لكن لدينا هنا تقريرا يقول أنك لم تتمكن من ممارسة الجنس مع سيدة معينة . والتقرير لا تشوبه شائبة ، فقد رفعته نفس السيدة التى تعرضت لهذا الموقف ، فما تفسيرك له ؟ » .

أخذنى هذا السؤال على غرة . وشعرت بالحيرة ، لأن هذا الطارىء لم يعرض لى مع سيدة واحدة فقط ، وانما مع عدد منهن ولأسباب مختلفة . ولما كانت اللجنة دقيقة فى عملها فلا بد أن تكون اجابتى محددة . وكيف يكون ذلك وانا لا أعرف السيدة التى يعينها ؟

كان العضو القصير ، بدافــــع من حقده على ، هو الذى أنقذنى من الاجابة . فلم يملك نفسه وصاح :

« ربما كان عنينا . » .

لكن ذا الشعر الأشقر لم يشاطره الرأى ، فقد انحنى على اذن الرئيس قائلا :

« هو فى الغالب ... » .

لم أسمع بقية الجملة ، لكنى لم أجد صعوبة فى تخمينها .

أشار الى صاحب الشعــر الأشقــر أن اقترب بحيث أقف أمامه ، ثم أمرنى بأن أخلع بنطلونى ، ففعلت . ووضعت بنطلونى على حافة مقعد فارغ ، ثم وقفت أمامهم بسروالى الداخلى القصير والجورب والحذاء .

ظلوا يتطلعون الى كما لو كانوا ينتظرون شيئا ، فمددت يدا الى سروالى الداخلى متسائلا :

« وهذا ايضا ؟ » ٠

أومأ الاشقر برأسه فخلعت السروال ووضعته فوق البنطلون بينما استقرت أنظار أعضاء اللجنة على الجزء العارى من جسدى يتأملونه باهتمام ٠

ولم يلبث الأشقر أن طلب منى أن أستدير وأعطيه ظهرى ٠ ثم أمرنى أن أنحنى ٠ وشعرت بيده على اليتى العارية ٠ وأمرنى أن أسعل ٠ وعندئذ شعرت باصبعه داخل جسدى ٠

اعتدلت واقفا بعد أن سحب الرجل اصبعه وعدت أواجههم فرأيت الرجل الاشقر يتطلع الى الرئيس قائلا فى انتصار :

« ألم أقل لك ؟ » ٠

ابتسم العجوز لأول مرة ، وانطلق الجميع يتكلمون فى وقت واحد ٠ وساد الهرج القاعة ، فلم اتبين شيئا مما يقولون ٠ واخيرا دق الرئيس على المائدة بقبضة يده ، فتوقف الكلام ٠ وعندما هدأت الضجة تماما خاطبنى قائلا :

« ان القرن الذى نعيش فيه هو بلا شك أعظم عصور التاريخ سواء من حيث ضخامة وقائعه وعددها ، أو من حيث الآفاق التى تنتظره ٠ فبأى شىء من هذه الوقـائع ، كالحـــروب والثورات والابتكارات ، سيذكر قرننا فى المستقبل ؟ » ٠

رحبت بهذا السؤال رغم صعوبته ، لأنى وجدت فيه فرصة لاستعراض معلوماتى فى موضوعات محببة لدى ٠

قلت : « هذا سؤال قيم · وبوسعى أن أذكر أمورا كثيرة ذات خطر · » ·

تدخل ذو الشعر الأشقر موضحا :

« اننا نريد أمرا واحدا ، ولابد أن تكون له صفة العالمية من حيث ماهيته او دائرة نفوذه ، فضلا عن قدرته على تجسيد المعانى السامية والخالدة لحضارة هذا القرن · » ·

ابتسمت وأنا اقول : « وهنا وجه الصعوبة ياسيدى · فمن الممكن أن نذكر مارلين مونرو · لأن هذه الفاتنة الامريكية كانت حدثا عالميا حضاريا بمعنى الكلمة · لكنه حدث عابر ، ولى أمره وانتهى · فمقاييس الجمال تتغير كل يوم على يد اشخاص موهوبين مثل ديور وكاردان · والكائن الانسانى نفسه فان · وهى خاصية تنأى بنا عن اختيار البترول العربى الذى سينضب بعد سنوات قليلة · ويمكن أن نذكر غزو الفضاء سوى أنه لم يتمخض بعد عن شىء ذى قيمة · ونفس المعيار يجعلنا نستبعد الكثير من الثورات· ربما خطر لنا أن نتوقف عند فيتنام ، وهو مالا أحبذه لما سيجرنا اليه ذلك من مداخلات ايديولوجية لا ضرورة لها · .

« أقول كل هذا لأنكم طلبتم أمرا سيذكر به قرننا فى المستقبل · أولا يتحقق هذا ، اذا ما وجد الشىء نفســـه فى المستقبل ليكون تذكرة دائمة بنفسه ؟

« وهذا يقودنا للبحث فى اتجاه آخر · وسنعثر بغير صعوبة على الطريق السليم · لكنه للأسف طريق طويل مزدحم ، كالطريق المؤدى الى المطار ، بلافتات كثيرة تحمل أسماء شديدة التنوع مثل فيليبس ، توشيبا ، جيليت ، ميشلان ، شل ، كوداك ، وستنجهاوس فورد ، نسله ، مالبورو ·

« وأظنكم توافقوننى أيها السادة ، على أن العـــالم كلـه يستخدم الابتكارات التى تحمل هذه الأسماء · كما أن الشركات العملاقة التى تنتجها تستخدم العالم بدورها ، فتحول العمال الى آلات ، والمستهلكين الى ارقام ، والأوطان الى اسواق · وهـى بذلك نتاج ذو خطر لمنجزات قرننا العلمية والتكنولوجية · كمـا أنها غير معرضة للفناء أو النضوب ، فقد وجدت لتبقى ·

« فأيها اذن نختار ؟ » ·

توقفت لحظة محسوبة وأنا أتطلع اليهم · ثم أجبت بطريقة مسرحية :

« ولا واحدة ! » ·

سرت همهمة بين الأعضاء فتجاسرت ورفعت يدى قائلا :

« مهلا أيها السادة · لم أقصد أنى عاجز عن الاجابة على سؤال لجنتكم الموقرة ، وانما أردت أن أقول أن الاجابة ليست فيما ذكرت لكم من أسماء » ·

توقفت لحظة ثم استطردت :

« سأذكر لكم أيها السادة ، ردا على سؤالكم ، كلمة واحدة وان كانت منصفة ، هى ··· كوكا ــ كولا » ·

انتظرت أن أسمع تعليقا ما أتبين منه أثر اجـــابتى ، لكن الصمت ران عليهم · عندئذ مضيت فى حديثى :

« لن نجد ، أيها السادة ، بين كل ماذكرت شيئا تتجسد فيه حضارة هذا القرن ومنجزاته بل آفاقه ، مثل هذه الزجـــاجة الصغيرة الرشيقة التى يتسع است كل انسان لرأسها الرفيعة » ·

ابتسمت لهم منتظرا أن يشاركونى الابتســـام لمحاولتى فى الفكاهة ، لكنهم ظلوا يتطلعون الى فى جمود ، فاستطردت :

« انها موجودة فى كل مكان تقريبا ، من فنلندة وألاسكا فى الشمال ، الى استراليا وجنوب افريقيا فى الجنوب · ولقد كان نبأ عودتها الى الصين بعد غيبة استمرت ثلاثين عاما ، من الانباء المدوية التى سيصاغ منها تاريخ هذا القرن · وفى الوقت الذى تختلف فيه كلمات الله والحب والسعادة من بلد الى آخر ، ومن لغة الى غيرها ، تعنى الكوكاكولا نفس الشىء فى كل مكان ، وبكافة اللغات · والى جانب هذا فان المادة التى تصنع منها لايهددها شىء بالنضوب ، لأنها نبات يمكن زراعته بسهولة ، والذوق الذى يستسيغها لن يتحول عنها بفضل ماتتميز به من قدرة على تكوين عادة تقرب من الادمان ·

« ومنذ ظهورها ، ارتبطت الكوكا كولا بالمعـــالم الرئيسية للعصر ، بل وساهمت أحيانا كثيرة فى صياغتها · فقد توصل الصيدلى الامريكى « بمبرتون » الى تحضيرها بمدينة أتلانتا ، عاصمة ولاية جورجيا ، مسقط رأس الرئيس الاميركى كارتر ، وعصابات كلو ــ كلوس كلان الشهيرة ، فى سنة ١٨٨٦ ، وهى نفس السنة التى تم فيها نحت تمثال الحرية الشهير ، الذى أصبح رمزا للعالم الجديد ·

« أما الزجاجة نفسها ، فهى احدى ثمار أول حرب تحريرية تخوضها الولايات المتحدة خارج حدودها ، بعد انتصـــارها فى الداخل على الهنود الحمر ، وهى الحرب ضد اسبانيا فى كوبا ، والتى انتهت عام ١٨٩٩ باعـــلان « استقلال » كل من كـــوبا وبورتوريكو والفيليبين · ففى كوبا شهد جندى اميركى ــ يحمل بالصدفة اسم المفكر الاميركى العظيم للقـــرن السابق ، بنيامين

فرانكلين ـ زجاجة مياه غازية من شراب الموز • وتمكن فور عودته الى بلاده ، من الحصول على امتياز تعبئة الاختراع الجديد فى زجاجات ، تعددت اشكالها حتى استقرت اخيرا على الشكل الشهير المعروف « بالمرأة ذات الثوب الضيق » •

« وربما كانت الكوكاكولا هى أول من حطم المفهوم القديم للاعلان ، الذى كان قاصرا على مجرد بيان بمواصفات السلعة ، واضعة بذلك حجر الاساس فى البناء الشامخ لأحد فنون العصر القائدة ، وأعنى بذلك فن الدعاية • لكن المؤكد أنها هى التى قضت على الوهم الذى ساد طويلا بشأن العلاقــة بين العطش ودرجــة الحرارة ، عندما ابتدعت وروجت شعار « العطش لا يعرف فصلا » • وكانت سباقة الى استغلال الراديو ، والى اضاءة المدن بالاعلانات الضوئية ، وتبنى البرامج التليفزيونية والافــلام السينمـــائية ، واحتضان نجــوم الدنيـــا الجديدة ومعبوديها الجدد من ممثلين وخنافس ورواد للروك والتويست والبوب •

« وخاضت الكوكاكولا غمار حربين عالميتين ، خرجت منهما منتصرة • فقد باعت خمسة مليارات من الزجاجات خلال السنوات السبع للحرب الثانية • ثم أنها دخلت اوروبا على جناح مشروع مارشال الذى ساعد الاوروبيين بالمنتجات والقروض الاميركية على تغطية ما سببته الحرب من عجز فى الدولارات •

« واذ استقرت فوق قمة المجتمع الاستهلاكى ، الى جـــوار سيارة فورد وقلم باركر وولاعة رونسون ، لم تفتهـــا التغيرات المتلاحقة فى عالم اليوم • فعندما بدأ عصر الشراء العظيم والبيع بالتقسيط والتنافس على اكبر سيارة وأحدث طراز منهـــا بأكبر مساحة فى الخلف تستوعب أكبر كمية من السلع لتملأ أكبر ثلاجة، تقدمت الكوكا كولا بالزجاجة العائلية « الماكسى » •

« وعندما اشتركت الـولايات المتحدة فى حرب تحريريـة جديدة فى كوريا ، ابتكرت الكوكا كولا علبتها الصفيح ، حتى يمكن القاؤها بالمظلات الى الجنود · ولم تقتصر اهمية هذه العلبة على أن صورة الاميركى الذى يفتحهـا بأسنـانه اصبحت رمزا للبطولة والرجولة ، أو على أنها أثبتت فاعليتها فى الحرب التالية بفيتنام ، وانمـا تعدت كل ذلك الى ما هو أخطر ، فدشنت عصر الفوارغ ، الذى يرمى فيه المستهلك بعبوة السلعة بعد أن ينتهى من استخدامها ·

« ولا شك أن نجاح الكوكا كولا يرجع أسـاسا الى حسن التنظيم ، الذى ابتكرت له منذ البداية الشكل الهرمى ، حيث توجد الشركة الاصلية فى القمة ، وتتتابع تحتها ، حتى القاعدة ،شركات مستقلة تتولى التعبئة والتوزيع · وقد مكنها هذا الشكل الفريد من الحصول على التمويل اللازم لتغطيـة السوق الأميركية فى أول عهدها ، ثم ساعدها فيما بعد على الافلات من حملة روزفلت ضد الاحتكارات ، وأتاح لها أخيرا أن تغزو العالم ·

« فهى تعتمد فى فتح الاسواق العالمية على اقامة مؤسسات محلية مستقلة فى كل بلد ، يؤلفها أشهر الرأسماليين به · وقـد حققت هذه الخطة نتائج هائلة ، ليس أقلها اضفاء الصبغة الوطنية على الزجاجة الأميركية ·

« ولعلكم سمعتم بقصة اليابانى الذى تمايل طربا عندمـا قدموا اليه زجاجة كوكا كولا فى أحد مطاعم باريس ، اذ ظن أن ادارة المطعم كرمته بصفة خاصة فأحضرت له مشروبه القومى بالطائرة من طوكيو ·

« ولمزيد من الدلالة على ما لهذه الزجاجة من خطر ، فانى احيلكم أيهـا السـادة الى المقـال الذى نشرتـه جريدة

« الموند ديبلوماتيك » الفرنسية المعروفة فى عدد نوفمبر/تشرين الثانى ١٩٧٦ وذكرت فيه أن رئيس شركة الكوكا كولا هو الذى أعد ــ منذ زمن بعيد ــ وبالاشتراك مع عدد آخر من رؤساء الشركات الأميركية الضخمة ، جيمى كارتر ليكون مرشحا لرئاسة الولايات المتحدة ٠

« ويقول المقال ، الذى قرأتموه ولا شك ، أن رؤساء الشركات المذكورة كونوا لجنة من عشرة سياسيين ــ بينهم الرئيس الاميركى نفسه ونائبه والتر مونديل ــ لتمثيل الفرع الأميركى لما يسمى « باللجنة الثلاثية » ، التى أسسها عام ١٩٧٣ دافيد روكفلر ، وتولى ادارتها حتى فترة قريبة جدا ، البروفسور زيجنيو برجينسكى مستشار الامن القومى للرئيس الاميركى ٠ أما لماذا سميت اللجنة بالثلاثية فلأنها تجمع أميركا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان فى هدف محدد هو مواجهة العالم الثالث وقوى اليسار فى أوروبا الغربية ٠

« واذا كان هذا هو نفوذها على أكبر وأغنى دولة فى العالم، فلكم اذن تتصوروا وضعها فى بلدان العالم الثالث ، وخاصة بلادنا نحن الصغيرة الفقيرة ٠

« والواقع أن من حقنا أن نصدق مايقال عن هذه الزجاجة البريئة المظهر ، وكيف أنها تلعب دورا حاسما فى اختيار طريقة حياتنا ، وميول أذواقنا ، ورؤساء بلادنا وملوكها ، بل والحروب التى نشترك فيها ، والمعاهدات التى نوقعها » ٠

خيل الى أن الوجوم سيطر على اللجنة ، وقدرت أن السبب ربما يعود الى أنى ، وقد خلب الموضوع لبى ، أطلت الحديث أكثر مما يجب ٠ لكنى لم ألبث أن أحسست احساسا مبهما بأنى « قد

وطأت قدم أحدهم » ، وهو تعبير دارج فى لغة اللجنة ، يستعمل للدلالة على الشخص الذى يرتكب اساءة أو خطأ عن غير قصد ٠

كنت مازال مجردا من بنطلونى وسروالى الداخلى ٠ وجعلنى هذا أشعر أنى عار تماما أمام اللجنة ، ليس فقط بالمعنى المادى للكلمة ، وانما بمعناها المجازى أيضا ، وأننى تحت رحمتهم تماما ٠

لكن أغرب ما فى الامر ، أن الدقائق الاخيرة أمدتنى باحساس مبهم بأنى أستطيع أن أوجه اليم ضربة ما ، أو أرد لهم ضربتهم بصورة ما ٠

تنحنح القصير الذى صرت أبادله الكراهية ، وبعد أن التفت للعجوز مستأذنا ، وجه الى الحديث بلهجة متكلفة :

« ان اجابتك المستفيضة تكشف عن سعة اطلاعك فى الشؤون المعاصرة ٠ ونحن نتمنى أن تكون على نفس القدر من السعة (وهنا لم أملك نفسي من الابتسام) بالنسبة للقضايا التاريخية » ٠

التمعت العينان الملونتان لذى الشعر الأشقر وقال لزميله القصير :

« اذا سمحت لى » ٠

ثم اتجه الى قائلا :

« سنختبر هذه النقطة حالا ٠ وبالنظر للأهمية التى أعطيتها فى حديثك للشكل الهرمى ، فليكن الهرم الاكبر موضوعنا ٠ فلا يساورنى الشك فى أنك تتمنى الجلوس فوق قمته ٠ على أن لك مطلق الحرية فى اختيار الزاوية التى تريد الحديث عنها » ٠

للوهلة الأولى فرحت ، فها هو موضوع أعرفه جيدا بحكم مصريتى ، وأستطيع أن أصول وأجول فيه كما أشاء · لكن قلبي سرعان ما حدثنى بأن هناك شركا كبيرا فى انتظارى ، وتضرعت الى الله أن يلهمنى كى أتجنبه ، وأزيل أيضا الأثر السيء الذى أحدثته كلمتى السابقة · ولم يلبث الله أن استجاب لدعائى ، فأنار بصيرتى ، وانطلقت أتكلم بثقة وطمأنينة :

« ان المجموعة المعمارية المؤلفة من الاهرامات الثلاثة وأبى الهول ، والتى شيدت قبل خمسة آلاف سنة ، مازالت تمثل لغزا من الالغاز التى تتحدى العقل الانسانى ، وتشهد بعبقرية من شيدوها ·

« وكلنا ولا شك تابعنا المحاولة الاخيرة التى قام بها العلماء الامريكان لكشف هذا اللغز ، بالاجهزة الالكترونية المتقدمة ، ولم تسفر عن شيء ·

« فلا زال العلماء مختلفين فى الغرض من اقامة الاهرامات وكيفية بنائها · فمنهم من يرى أنها شيدت لتكون مراصد لتسجيل ما حدث والتنبؤ بما سيحدث · ويقول دافيدسون أن السطوح الخارجية للهرم الاكبر صممت بحيث تعكس الضوء ، وبذلك يكون الهرم بمثابة مزولة شمسية تعين مواعيد البذار والحصاد ·

« وهناك بالطبع الاحتمال الأغلب ، وهو تخليد أسماء الملوك والمحافظة على جثثهم · فلا شك أن الغرض الواضح من بناء الأهرامات هو أن تكون بمثابة مقابر خالدة ·· وان كان خوفو قد نجح فى تخليد اسمه اكثر من أى ملك آخر فى التاريخ ، فان الغرض الاساسى من بناء الهرم ، وهو المحافظة على جثته ، لم يتحقق ، لأنها اختفت رغم الشبكة الداخلية المتقنة من الممرات والغرف التى أخفيت عمدا أثناء البناء ·

« ونحن نعرف من هيرودوت أن الاحجار المستخدمة فى بناء الهرم الاكبر كانت تنقل بواسطة نهر النيل ، عبر طريق بناه مائة الف عامل فى عشر سنوات ، وبعد ذلك ترفع من درجة الى أخرى فى البناء بواسطة روافع مصنوعة من قضبان قصيرة ٠

« وليس هناك من دليل على أن المصريين استخدموا ، فى أى عصر من عصور تاريخهم ، أجهزة ميكانيكية عدا الرافعة والبكرة والمنحدر المائل ٠ ولهذا يميل الكثيرون الى الاعتقاد بأن ضخامة البناء ودقته تقطعان بأن وسائل ميكانيكية سرية ، ضاع سرها ، قد استخدمت فى اتمامه ٠ وربما كان هذا مبعث الخلاف الناجم بشأن دور الاسرائيليين فى بنائه ٠ فالبعض يقول أن خوفو نفسه كان من ملوك بنى اسرائيل فى حقيقة الامر ، وقد أخفى ذلك طبقا لتقاليد هذا الشعب ، الذى أجبره الاضطهاد المتواصل منذ فجر التاريخ على أن يتسلح بالسرية التامة فى كل أموره ٠ والبعض الآخر يقول أن خوفو لم يكن سوى فرعون مصرى ، لكنه استعان بالعبقرية اليهودية لحل المشاكل المعقدة التى طرحها بناء هذه الاعجوبة المعمارية ٠

« والواقع ان الخواص الهندسية للهرم الاكبر تدل على دراية وافرة بعلم الهندسة ، وقدرة فائقة على الابتكار والابداع ٠ وهما أمران لم يتوفرا بالطبع لدى المصريين ، ولهذا فمن الارجح أن يكونوا قد استعانوا بالخبرة الأجنبية الاسرائيلية ٠ وان كان هناك من يؤكد أن الاسرائيليين كانوا عبيدا لخوفو ، وان هذا الملك المستبد أرغمهم على العمل فى بناء الأهرام ٠ وهذه النقطة بالذات محل مناقشة ، فاذا كان من الصعب انكار الطابع الاستبدادى لفراعنة مصر على مر الزمن ، فمن العسير أن نتصور أن بناء بهذه العظمة والدقة يمكن أن يكون وليد السخرة وحدها ، والأقرب الى التصديق أن يكون وليد ايمان عميق بديانة تضع الفرعون على قمة الوجود ٠

« وهذا ما يؤدى بنا الى تفضيل النظرية القائلة بأن خوفو نفسه كان من الملوك السريين لبنى اسرائيل ، خاصة وأننا نعرف المهندس الذى أشرف على بناء الهرم ويدعى حم — ايونو ، وهو ابن عم خوفو نفسه ٠

« وفى كافة الحالات ، فان هذا البناء الهائل الذى يتكون من مليونين وثلاثمائة الف قطعة من الحجر ، شاهد على عبقرية من بنوه ٠ فهناك مايدل على أن مناشير نحاسية يبلغ طول الواحد منها تسعة أقدام ، قد استخدمت فى قطع الكتل الحجرية الكبيرة ، التى اذا قطعت اليوم الى أجزاء صغيرة بطول قدم لكل منها ، ووضعت بجانب بعضها ، لأمكنها أن تغطى ثلثى المسافة حول الأرض عند خط الاستواء ٠

« والمؤكد ايضا أن المثاقب الانبوبية الشكل قد استخدمت فى تفريغ الكتل الحجرية ٠ والحق أن الثقوب الحديثة لا تدانى فى الدقة والكمال تلك التى صنعها أولئك البناة العظام منذ خمسة آلاف عام ٠ وهى وحدها معجزة حقيقية » ٠

شعرت أن التوتر الذى كان يسود الحجرة قد تلاشى ، وأن الجو المعادى لى قد خف كثيرا ٠ وكان أعضاء اللجنة قد استمعوا لى فى اهتمام شديد ، حتى أن الرجل البدين الذى يجلس فى الطرف ، أنزل عينيه لأول مرة من السقف وصوبهما الى ٠ وعندما انتهيت رمقنى أحد العسكريين بنظرة رضاء أسعدتنى ٠ ودبت الحركة فى الاعضاء ، فانهمكوا فى أحاديث هامسة ٠ وعندئذ لحظت أن الجزء الاسفل من جسدى مازال عاريا ، فتناولت سروالى الداخلى فى تردد ٠ وعندما لم يستوقفنى أحد ارتديته على عجل ثم أشفعته ببنطلونى ٠

وبدا أنهم استقروا أخيرا على رأى تولى الرجل ذو الشعر الاشقر ابلاغه للرئيس عبر اذنه السليمة ، فقال لى هذا وهو يشير الى الاوراق التى وضعتها أمامهم فوق المائدة :

« يمكنك أن تأخذ هذه الأشياء الآن · لم تعد لدينا اسئله · وعندما نتوصل الى قرار بشأنك سنحيطك به علما » ·

جمعت أوراقى وأنا أحاول أن أبدو واثقا من الحكم الذى سيصدرونه · لكنى كنت أحس باضطراب شديد فى امعائى · وكنت أقوم بحركاتى دون وعى · فوضعت الأوراق فى الحقيبة بغير نظام ، ثم أغلقتها وتناولتها فى يدى اليسرى (اذ تذكرت ماوقع لى فى بداية المقابلة) · وانحنيت امام أعضاء اللجنة دون أن أنبس بكلمة ، ثم اتجهت الى الباب فأدرت مقبضه بيدى اليمنى · وسررت لأنه استجاب ليدى فى يسر وانفتح · فغادرت القاعة ولم أنسى أن أغلق الباب من خلفى · ووضعت الحقيبة على الأرض ثم أشعلت سيجارة فى لهفة ·

وكنت أعرف أنى لن أذوق طعم النوم ، أو راحة البال ، حتى تصدر اللجنة قرارها النهائى بشأنى ·

٢

انقضت عدة شهور على المقابلة التي جرت لي مع اللجنة ، تناوبتني خلالها مشاعر اليأس والرجاء • فكنت أستيقظ في الصباح بثقة مطلقة في أن قرارها سيكون لصالحي • ولاتمض ساعات الا ويكون الشك قد راودني ، فاسترجع وقائع المقـابلة لحظة بلحظة ، وعندئذ يستولي على هبوط بالغ ، أو أقع فريسة لليأس مطبق •

لم تكن هناك وسيلة لتلمس موقف اللجنة مني ، أو الاتجاه الذي تمضي فيه مداولاتها بشأني • حقا انه قد خطر لي أن أسعى للقاء العانس ، عضو اللجنة ، لكني تصورت أنها ليست من البله بحيث تفضي الي على الفور بما أريد • ولابد أن أبذل جهدا خاصا، لأبلغ هذه الغاية • على أني كلما تذكرت وجهها الشاحب ، تلاشت رغبتي في لقائها • فرغم أني تورطت في بضع أشياء تتناقض ، بدرجة أو أخرى ، مع مبادئي ، منها على الاقل قبولي للمهانة التي تعرضت لها على « يد » اللجنة ، الا أني لم أهبط بعد الى الدرك الذي أتودد فيه الى امرأة توددا مصطنعا • وليس الأمر قرارا عقليا بقدر ماهو استعداد نفسي في الاساس • وحتى لو استطعت ،فماذا يضمن لي الا اضطر للمضي حتى النهاية • ومعنى هذا أن يتطور

الموقف الى كارثة ، بالنظر الى سوابقى فى هذا الشأن ، والتى كانت موضوعا للعبث بى أمام اللجنة ·

لم يبق أمامى غير الأنتظار ، فلزمت البيت ، لا أغادره الا لماما ، كى لا تفوتنى اشارة من اللجنة تبلغنى فيه بقرارها ، ان سلبا أو ايجابا ، او تستدعينى أمامها لهذا الغرض ·

وكنت أهم بتناول عشائى ذات مساء ، عندما وصلتنى منها برقية أثارت حيرتى · فبدلا من دعوة للحضور ، او بلاغ وجيز بالقرار النهائى ، طالعتنى هذه وكلمات :

« ننتظر دراسة عن ألمع شخصية عربية معاصرة » ·

كانت المعلومات القليلة التى تجمعت لدى عن اجـــراءات اللجنة ، تؤكد أنى أمام اجراء غريب ليس له سابقة · فقد جرت عادة اللجنة على أن تبت فى أمر من يسوقه حظه للمثول أمامها ، من خلال لقاء وحيد لا يتكرر ·

ولم يكن من سبيل لتعليل هذا التحول الغريب فى تقاليدها ، الا بافتراض حدوث انقسام فى الرأى بشأنى بين أعضائها · ومعنى هذا أن قوة مركزى هى الدافع لهذا القرار ، الذى أرادت به اللجنة ولا شك ارضاء المعترضين على (وبينهم بالتأكيد ذلك القصير قبيح الوجه) واعطائى فرصة جديدة لتبيان مواهبى ·

رفع هذا التأويل من معنوياتى الى أن تبينت الوجه الآخر من الأمر · فماذا يمنع أن يكون ضعف مركزى ، على العكس ، هو الذى جعل اللجنة تحاول ارضاء من تصدى للوقوف بجانبى ، بمنحى فرصة ثانية ؟ ومعنى هذا ، فى الغالب ، أن المهمة المطروحة

ليست لها قيمة كبيرة ، وانما هى ذريعة لتأجيل القرار الذى تحدد جوهره بالفعل ٠

وقبل ان أهوى الى قرار اليأس ، تراءى لى احتمال ثالث ، هو أن تكون اللجنة قد أدخلت بعض التطوير على اجراءاتها ٠ ومن الطبيعى أنى لم أسمع بالنبأ ، منذ كانت الصحف لا تخوض فى شؤونها من قريب أو بعيد ٠

ساعد على ميلى للأخذ بهذا التفسير أن الدراسة المطلوبة ستكشف عن مدى تمكنى من لغة اللجنة ، حيث أنها ستقدم اليها مكتوبة كما يفهم من ثنايا البرقية ٠ ولم تكن تهتم فى السابق بهذا الجانب من قدرات الماثلين أمامها ٠

اتجه اهتمامى بعد ذلك الى دراسة البرقية بحثا عن الفخاخ التى اشتهرت اللجنة بها ، فوجدتها حافلة بالعديد منها ٠ فهى أولا لم تحدد زمنا لهذه الدراسة ولا حجما لها ٠ فلا أعرف اذا كان المطلوب هو عجالة سريعة مثل ما ينشر بالصحف ، او بحثـــا أكاديميا فى مئات الصفحات ٠ كما أنها لم تحدد المقصود باللمعان٠ أهو الشهرة ؟ أم تحقيق انجازات معينة ؟ وأى نوع من الانجازات؟ وعلى أى مستوى : فردى أم عام ؟ وفى أى مجال ؟

لم يكن من الممكن الاستفسار من اللجنة عن هذه الامور ، لأن هذا من شأنه ، اذا فرضنـــا أنه تيسر ، أن يظهرنى بمظـــهر العاجز ، ويقضى على كل فرصى ، منذ كانت اللجنة تعول كثيرا على طريقة تفسير اسئلتها ٠ لهذا لم يكن امامى سوى الاعتماد على نفسى ٠

لجأت الى معاجم اللغة ، فوجدت أن للمعان فى لغة اللجنة معنى واحدا يقتصر على خاصية عكس الضوء • أما العرب فقد أضفوا على الكلمة معانى متعددة ، فاستخدموها بمعنى البـرق والاضاءة ، وبمعنى السرقة عندما قالوا لمع بالشىء أى ذهب به واختلسه • كما قالوا ان الأنثى ألمعت أى ظهر حملها وتحرك الجنين فى بطنها • وقالوا أيضا أن الألمع هو الذكى المتوقد ؛ أما ألمع الناس فهو أكثرهم كذبا• ويبدو أن المعنى الأخير هو الذى اشتق منه التعبير الشعبى المعاصر « ابو لمعة الاصلى » الذى عرف فى البداية كاسم تجارى لأجود أنواع الطلاءات المستخدمة فى تلميع الأحذية ، ثم أصبح مع الوقت علما على كل من أدمن الكذب والمبالغة والادعاء •

ولكم أن تتخيلوا حيرتى • فأى هـذه المعانى التى تعرفها اللجنة هو المقصود ؟ وعم أبحث بين مئات الشخصيات التى تحدث ضجيجا لا ينتهى فى كل بلد عربى على حدة ، وعلى نطاق العالم العربى ككل ؟

قلبت الامر فى رأسى مدة دون أن أصل الى رأى • وأخيرا قررت أن أستعرض الاسماء المعروفة فى المنطقـة ، من مختلف المجالات ، دون أن أتقيد بمقياس معين لهذه المعرفة ، ومن خلال استبعاد الواحد منها بعد الآخر ، أحصر البحث فى عدد محدود من الأسماء والمعايير ، ثم أتخذ قرارا بشأن المعيار النهائى فى اختيار أحدها •

بدأت بالزعماء السياسيين والحكام ، فليس هناك من هم اكثر احداثا للضجيج منهم ، ولا أقوى • لكنى لم ألبث أن تبينت المشاكل التى ستترتب على اختيار احدهم • فالمعروف أن الجدل يثور كثيرا حولهم ، ومن شأن دراسة كالتى أنا مقدم عليهـا ، أن تتعـرض لتقويم الشخصية المختارة • وفى هذه الحالة تكون ثمة فرصة قد لا تتوفر فى حالات أخرى ، لأن أتخذ وجهة نظر تتعارض مع تلك التى تتبناها اللجنة •

استقر رأيي على استبعاد الساسة والحكام ، وأتبعتهم بالقادة العسكريين عندما لم تسعفني ذاكرتى باسم واحد منهم . ثم أسقطت الشعراء من حسابى لأنى لا أستسيغ ، ربما عن خطأ ، كلماتهم الفضفاضة ومعانيهم المبهمة ، وبذلك فأنا من البداية متحيز ضدهم ، وهو أمر يخل بالموضوعية الكاملة التى لا بد أن تتوفر فى دراسة كالتى أنا بصددها .

دونت أسماء عدد من الكتاب البارزين ، وعندما أخذت فى تحليل وضع كل منهم وجدت أن ما نالوه من مكانة يعود الى الأفكار والمبادىء التى دعوا اليها فى وقت ما . وبمزيد من التحليل تبينت أنهم أصبحوا فريقين ، الأول التزم الصمت ، سواء عن رهبة او قنوط ، رغم أنه يعرف أكثر من غيره حقيقة ما يجرى ، والفريق الآخر تراجع بسهولة ويسر عن دعاويه السابقة ، بل وتنكر لها .

وبحثت عبثا عن قاض واحد ارتبط اسمه بوقفة مجيدة الى جانب الحق . ومن هذه الزاوية أيضا أمكننى أن أتخلص من الصحفيين وزعماء العمال ، وسرعان ما ألحقت بهم من يدعون بنواب الشعب .

واكتشفت أن أغلب العلماء والاطباء والفنانين والمهندسين والمدرسين وأساتذة الجامعات كانوا مشغولين بجمع الثروات عن القيام بعمل واحد من شأنه أن يضعهم فى دائرة الضوء ، أو بالقرب منها . حقا ان صيت بعض من هاجر منهم طبق الآفاق بما حققه من كشف او ابتكار فى مجاله (رغم شكى أن الأمر فى كثير من الحالات لا يتعدى الدعاية المفتعلة) . لكنه فعل ذلك فى الخارج ، بعد أن نشأ وتعلم بين ظهرانينا ، ووضعت ابتكاراته وكشوفه على الفور لخدمة البلاد الأجنبية وأهلها . فأى علاقة صارت تربطه بموطن نشأته ؟

توقفت طويلا عند عدد من المغنين والمغنيات الذين يتمتعون بشعبية واسعة بين جميع العرب ، وتتابعهم الآذان بشغف من فوق قمم الجبال ، وفى متاهات الصحراء ، ومراكز المدن · لكن الكلمات المبتذلة والالحان الرخيصة التى يرددونها نفرتنى منهم · وكنت أميل الى صوت أحد كبارهم ، الذى استطاع بعبقرية من نوع خاص أن يبقى فوق القمة أكثر من نصف قرن ، طافيا فوق سطح الاحداث التى عصفت بهذه الأمة · لكنى كنت أعرف ، بحكم ظروف عرضت لى ، المصدر الاصلى لأغلب الالحان التى نسبها لنفسه ، كما كنت أعرف أيضـــا أنه يقدم ما يشبه الرواتب الشـــهرية لعديد من الشخصيات الاعلامية التى تعمل على حراسة مجده ، وأنه يحارب بلا هوادة أية أصوات جديدة منافسة ·

وقضيت وقتا مماثلا ادرس موقف تلك الدمى التى تملأ فراغ الشاشتين الكبيرة والصغيرة على السواء ، فلم أجد لدى حماسا لتقصى أمر احداها · فبالرغم من دقة وضعى ، وحاجتى الشديدة لرضاء اللجنة ، فانى آليت على نفسى فى كل أمورى ، الا أقوم بعمل من الأعمال الا ويكون له صدى فى نفسى ، ويستجيب لشىء عميق او أصيل فى داخلى ·

لم يتبق غير الراقصات اللاتى تظهر صورهن فى الصحف كل يوم ، ويأتى للاستمتاع بمشاهدتهن فى الملاهى المتناثرة تحت سفح الاهرامات العتيدة ، آلاف المبعوثين المتعطشين الى المعرفة من مختلف اركان الوطن العربى ·

وكان ثمــة ما يغــرى بالبحث والتقصى بشأنهن · وأقصد بذلك بعدهن عن الأمور الايديولوجية والسياسية ، مما يضمن منذ البداية عدم الاصطدام باللجنة ·

اتجه ذهنى على الفور الى واحدة منهن ، دابت الصحف على نشر أخبارها • وكنت قد شاهدتها بعينى فى مرة وحيدة قادتنى فيها الصدف الى الملهى الذى ترقص به • وأعجبنى يومها جسدها الفارغ الطويل ، الذى تلاعبت بدلة الرقص اللامعة بتفاصيله الرائعة بين الكشف والاخفاء ، رغم ما اتسمت به حركاتها من مبالغة • ولاحظت أنها تجد صعوبة فى ايداع الهبات التى انهالت عليها ، بين نهديها المكتنزين • وكان من الواضح أن بدلة الرقص لاتترك فى هذا الموضع مكانا كافيا للأوراق العريضة من الجنيهات العشر التى كانت الهبات تتألف منها • وهو أمر تنبهت اليه الدولة اخيرا عندما أصدرت اوراقا من فئة المائة جنيه فى أحجام صغيرة ملائمة ، مما يقطع بمدى ما لصاحبتنا من ثقل •

فكرت طويلا فى الأمر ، وقد استمالنى انى ساقضى ، بحكم الدراسة المقترحة ، بعض الوقت بالقرب منها ، قد تسمح لى خلاله بارتياد الاماكن المطروقة جيدا من فنها العظيم •

الا انى لم ألبث أن تخليت عن هذه الفكرة آسفا ،عندماتصورت المقاومة العنيفة التى ستواجهنى من عضوات اللجنة ، والتى ستحظى دون شك ببعض المساندة ، ولو ظاهريا ، من بقية الاعضاء •

عندئذ انتابنى شعور بالغ بالاحباط والعجز • ورأيت أنى مشرف على الافلاس والفشل • ولمت نفسى على أنى انسقت من البداية وراء سراب من الطموح ، قادتنى اليه ثقة بمواهبى ، فوضعت نفسى فى طريق اللجنة ، متعرضا بذلك لمحن متتابعة •

كان هذا منحى تفكيري ذات صباح ، وأنا أمر ببصري في غير مبالاة على عناوين الصحف ، متوقفـــا عند بعضها لأقـــرأ التفاصيل بشعور المرارة الذي يفيض بي عادة عندما أفعل ٠

لفتت نظـري صورة كبيرة بعرض الصفحة الاخيرة ، تمثل اعلانا عن بنك أميركي ـ عربي جديد ، ظهر بها جانب من حفـــل افتتاحه وعدد من كبار المؤسسين وجلهم من الشخصيات البارزة ٠

والذي اجتذب انتباهي على وجه التحديد هو البدلة اللامعة لأحد الذين ظهروا في الصورة ٠ ولم اتعرف عليه في البداية بسبب التمويه الذي تتميز به هذه الصور عادة ٠ الا أني تمكنت من ذلك بعد أن قرأت اسماء الواقفين بالترتيب

كان لأسمه الكامل وقع غريب في أذني ، لأنه كان معروفا لي وللكثيرين بلقب « الدكتور » وحسب ٠ ومع أن بـــلادنا تعـــج بالآلاف الذين يحملون هذا اللقب العلمي الرفيع ، فان مجرد ذكر اللقب وحده كان كافيا للدلالة عليه دون سواه ٠

ظل كل من اسمه ولقبه يتردد في ذهني طول اليوم ، ومعهما صورته بالبدلة اللامعة ، وبعض الذكريات القديمة ، ومنها المرة الوحيدة التي رأيته فيها رأى العين ٠ وكان ذلك منذ خمس سنوات تقريبا ، عندما توقفت بي سيارة أجرة أمام اشارة المرور في ميدان رمسيس ، ورأيت الانظار كلها تتجه الى سيارة مرسيدس فخمة من أحدث طراز ، استقر صاحبنا في مؤخرتها ممسكـــا بسمـــاعة تليفون ٠ وكان ذلك أمرا عجبا حينئذ ، لأننا كنا مانزال قريبي العهد بحرب اكتوبر ، ولم نكن قد انفتحنا بعد ، وبالاضافة الى ذلك كانت

أغلب التليفونات الثابتة فى البلاد عاطلة عن العمل ، فما بالكم بواحد متحرك يعمل ؟

وبعد ذلك بعام او نحوه ، حملتنى الظروف الى بغداد ، وكنت أسير مع صديق عراقى فى أحد الشوارع القريبة من وسط المدينة ، عندما رأيت على الرصيف المقابل منزلا مكونا من طابقين ، تحيط به حديقة صغيرة ويحرسه عدد من الجنود بالملابس المموهة والمدافع الرشاشة • سألت صديقى عن صاحب المنزل فاذا به ينهرنى بصوت خافت وقد أطرق برأسه الى الأرض : « انظـــر أمــامك ولا تتطلع الى الناحية الأخرى » • فعلت كما أراد ، وعندما ابتعدنا عن المنطقة قال لى : « أتريد أن تقضى علينا ؟ هذا منزل الدكتور ! » لم أجرؤ ساعتها على مزيد من الاستفسار ، فلم أعرف حتى الآن ما اذا كان المقصود بذلك هو مواطنى المعروف ، أم شخص آخر ، عراقى ، ينازعه اللقب •

واذ أعطيت الأمر الآن جانبا من تفكيرى ، رأيت أنه يستوى فى الحالتين • فلا يقلل من شأن مواطنى أن يوجد منافس له فى كل عاصمة عربية ، وعلى العكس فان ذلك يعطى فكـــرة عن أوجـــه التشابه ، ان لم يكن التطـــابق ، بين الاثنين ، ويؤكد من جديد خطورة شأن صاحبى وأهميته •

ولعلكم لمستم اهتمامى بأمــــره • فمع تداعى الذكـــريات والانطباعات ، ازددت اقتناعا بأنى وجدت ضالتى أخيــرا • قد لا يـــكون « الدكتور » معروفـــا بالقدر الذى يتمتـــع به المغنون والراقصات ، الا أنه بالتأكيد اكثر منهم فاعليـة وتأثيرا ، لا فى حدود بلادى وحدها ، وانما على مستوى العالم العربى بأكمله • ولا شك فى أنه يساهم بقدر كبير فى صياغة الحاضر والمستقبل ، فهل يكون ثمة من هو « أهم » من ذلك ؟

هكذا حزمت أمرى على أن أجعله موضوعا للدراسة المطلوبة منى ٠

وضعت خطة بارعة تتلخص في قراءة كل ماكتب عنه من دراسات أو مقالات أو أنباء عابرة بالصحف ، ثم مقابلته وتوجيه عدد من الاسئلة الذكية اليه ، أعدها بعناية ، بحيث تسد الفجوات التى ستقابلنى فى قراءاتى واستكمل بها معالم شخصيته ، التى أنوى رسمها بدقة واحكام ٠

على أنى اضطررت الى تعديل خطتى عندما لم أجد كتـــابا واحدا عنه ٠ ويبدو أن أحدا غيرى لم ينتبه الى أهميته ، ولـــم يجد فيه موضوعا جذابا ، او ربما كان الكتاب ينتظرون موته ، لتكتمل بذلك سيرته ٠

وبقدر ما سعدت لأنى أطرق موضوعا بكرا لــم يسبقنى اليه أحد ، شعرت بالصعوبات الناشئة عن ذلك ٠ لهذا قررت أن أبدأ بمقابلته ، فقد يدلنى على شىء كتب عنه وفاتنى العثور عليه ، او قد تكون لديه بعض المذكرات الشخصية التى لا يمانع فى اطلاعى عليها ٠

ارتديت أفضل ملابسى ، وحملت حقيبتى « السامسونايت » بعد أن أودعت بها مسجلة يابانية صغيرة الحجم وكراسا جديدا وعدة أقلام وورقة صغيرة دونت بها رؤوس الموضوعات التى أبغى طرقها معه ٠

انطلقت الى مقر احدى المؤسسات التى ارتبطت باسمه بعد أن حصلت على عنوانها من دفتر التليفون ٠ وذكـــر لى موظف الاستعلامات أن « الدكتور » لا يتردد على مؤسسته فى مواعيد محددة ٠ وعندما أوضحت له حاجتى الشديدة للقائه ، دون أن اذكر له بالطبع السبب الحقيقى ، أحالنى الى احدى السكرتيرات بعد أن فتش حقيبتى للاطمئنان على خلوها من الاسلحة والمتفجرات٠

عاملتني السكرتيرة بجفاء مؤكدة استحالة الفوز بمقابلة « الدكتور » في موعد قريب ، فهو أولا لا يتواجد في مكتبه الا نادرا لأنه دائم التنقل بين العواصم العربية بحكم أشغاله ، وهناك ثانيا قائمة طويلة من المنتظرين ، ولابد لي ثالثا من ايضاح مطلبي باستفاضة على ورقة مكتوبة بلغة سليمة تقدم اليها لتحيلها بعد ذلك الى مدير مكتبه • وعرفت منها أن مدير المكتب هو نفسه أحد اساتذة الجامعات المعروفين الذين لمعوا في الستينات وارتبطت اسماؤهم بمشروعات طموحة للتصنيع الثقيل •

وقعت في حيرة شديدة • فلم يكن في وسعي أن أذكر حقيقة علاقتي باللجنة • فبالرغم من خطورتها وسعة نفوذها ، فانها من الناحية الرسمية لا وجود لها ، وأي محاولة للتمسح بها لن تقابل الا بالأستغراب والسخرية • واذا كان من الممكن أن يدور الحديث حول هذا الموضوع بيني وبين الدكتور نفسه ، فمن المستحيل أن أشير اليه في ورقة تأخذها السكرتيرة لتضعها أمام مدير المكتب • أما اذا أغفلت دور اللجنة ، فماذا يتبقى ؟ أحد هواة الكتابة المجهولين يبغي وضع كتاب عن شخصكم الكريم • وما الذي يضمن له أني لست سوى محتال يسعى للقائه طلبا لوظيفة او صدقة ؟

انصرفت مهموما لأدرس الأمر • ورأيت أن الوقت يمضي بسرعة دون أن أتوصل لشيء ، وأن محاولة الالتقاء بالدكتور ستستغرق عدة أيام وربما أسابيع ، وفي النهاية قد لا تسفر عن شيء • لذلك غيرت خطتي مرة ثانية ، وعزمت على التفرغ فورا لجمع كل ما نشر عنه بالصحف •

مضيت الى المبنى الضخم الذي يضم مكاتب أهم الصحف اليومية وأكثرها توزيعا ، وطلبت الاطلاع على أعدادها الصادرة منذ ربع قرن ، فهذا هو التاريخ الذي رأيت انه يصلح نقطة بدء لتتبع مسيرة الدكتور الحافلة •

اتخذت مكاني الى احدى الموائد في قاعة المكتبة ، وأخرجت من حقيبتي الكراس الفارغ والقلم ، بينما احضر لى الموظف عدة مجلدات من الصحيفة يكسوها الغبار ، فتناولت المجلد الأول ، وفتحت غلافه ، ثم بدأت أقلب الصفحات ٠

غصت على الفور في عالم غريب من الاحــداث المثيرة والرجال والنساء الذين ملأوا الأسمـــاع والاصداء ٠ وانبسطت أمامي الطموحـــات التي تأججت يوما في الصدور ٠ استغرقتني صور الماضي ، حتى أني كنت أنتزع عيني بصعوبة من الصفحات المغبرة مذكــرا نفسي بالهـدف الذي أسعى وراءه ، فانتقل الى الصفحات التالية في تثاقل وكآبة ٠ وأصبحت كمن يستعيد طفولته وصدر شبــابه ، ويتأمل ما داعبــه ذات يوم من أحلام وآمــال ، ولا يلبث أن يشعر بالاسى عندما يتبين ما صار اليه حاله ٠

اعتورني دوار من جراء تقليب الصفحات ونقل البصر بين العناوين والصور واستنشاق الغبار ٠ وبدأت أشعر بهول المهمة التي وضعتها لنفسي عندما لم أتمكن بعد ثـــلاث ســـاعات من استعراض أكثر من عشرة أعداد ٠ عندئذ أصابني هبوط مألوف ، وشعرت بحاجة ماسة الى فنجان من القهوة أو كوب من البيرة ، لكني لم أجد الهمة الكافية لأن أطلب شيئا من صبي المقصف الذي كان يطل برأسه من مدخل القاعة كل حين ٠

وحسم موظف المكتبة الأمر عندما أبلغني بانتهاء موعد العمل فتنهدت في ارتياح ، وأعدت اوراقي الى الحقيبة ، بيضاء من كل سوء ، وحملت الحقيبة وغادرت القاعة...

قمت بعملية حسابية بسيطة فـرأيت أن الاعداد التى أريد الاطلاع عليها من هذه الصحيفة بالذات هى ٣٦٥ × ٢٥ سنة = ٩١٢٥ عددا · وطبقا لمعدل اليوم وبفرض أنى عملت كل يوم دون انقطاع ودون أن أمرض أو تؤخرنى المواصلات أو يعوقنى انقطاع الكهرباء أو المياه أو غير ذلك من الطوارىء المألوفة ، اكون بحاجة الى حوالى الالـــف يوم أى ثلاث سنوات · هذا بالنسبة لصحيفة واحدة ·

ولم يكن بوسعى أن أعتمد على صحيفة واحـدة فحسب · فرغم أن صحفنا القومية تنشر دوما نفس الاخبار والتعليقـــات بل ونفس الصور ، الا أن أركان الاخبار الخفيفة وأنباء النوادى والسهـرات تتميز بشىء من التنوع · وهى التى عـولت عليها ، فليس ثمة مكان لأنباء « الدكتور » على الصفحات الأولى ، طالما أنه ليس بالشخصية السياسية او السينمائية ·

يضاف الى ذلك المجلات الاسبوعية والشهرية ، والصحف والمجلات الصادرة فى المشرق والمغرب · ومعنى هذا كله أنى اذا أردت أن أكون أمينا مع نفسي ، فلا بد لى من التفـــرغ ، تفرغا كاملا ، لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات أو أربع ، من أجل جمع مادة البحث فقط · وهناك بعد ذلك الوقت اللازم لدراستها وتحليلها ثم صياغة النتائج التى سأتوصل اليها ·

لم اكن قلقا بشأن انقطاعى عن عملى الاصلى ، اذ أن اللجنة توفر لمن يتقدم أمامها اجازة مدفوعة الأجر من عمله الى أن تنتهى من أمره · لكنى كنت أجهل المدة المقررة للبحث ، وبالتالى لم يكن بوسعى التورط فى منهج للعمل يتطلب وقتا بهذا الطول ·

بحث بلا جدوى عن مخرج الى أن تذكرت أن احدى الصحف اليومية الكبرى تحتفظ بارشيف ضخم يضم معلومات تفصيلية عن أهم الشخصيات العربية ، يعتبر من مفاخر مؤسسيها • وكان الهمس قد تردد فى وقت من الأوقات ، أن اللجنة حصلت منهم على صورة من هذا الأرشيف ، وأنها تعتمد عليه فى عملها الى درجة كبيرة • وقدرت أن ما يضمه هذا الأرشيف من معلومات عن « الدكتور » سيكون ذو عون كبير لى •

على أن الاطلاع على هذا الأرشيف لم يكن متاحا لكل من هب ودب من الناس • وتطلب الأمر بحثا شاقا حتى اهتديت الى من أوصى بى الموظف المسؤول عنه ، وسرعان ماكان الملف الموعود فى متناول يدى •

لم يكن بالضخامة التى توقعتها • وكان يحمل فوق غلافه شعار الدار ، واسم الدكتور الكامل مكتوبا بخط مزخرف فى عناية •

فتحت الملف باصابع مرتعشة من الأنفعال فطالعتنى ورقة بيضاء فى أعلاها تاريخ يعود الى بداية الخمسينات ، ولا شىء عدا ذلك • وقلبت الورقة فرأيت الورقة التالية مثلها •

تصفحت أوراق الملف بسرعة فرأيتها كلها متشابهة فى خلوها من كل شىء عدا التاريخ • وما لبثت أن تبينت فى صدر كل ورقة أثر الصمغ الذى كان يلصق بها المقتطفات المنتزعة من الصحف والمجلات •

أبدى المسؤول دهشته عندما عرضت عليه الملف ، لكنه لم يكن يملك شيئا لى • وأوشكت أن أنصرف عندما خطر لى أن أسجل التواريخ المذكورة على رأس كل ورقة ، ثم أرجع الى الصحف والمجلات التى صدرت فيها ، وبذلك أتوصل بمجهود بسيط الى محتويات الملف •

هكذا فعلت ثم انتقلت على الفور الى قاعة مجاورة ، حيث شرحت للموظف المشكلة ، فأحضر لى المجلدات التى تتفق وأولى التواريخ لدى • واذا بى أفاجأ بخلوها من أى شيء عن الدكتور • وعندما دققت البحث اكتشفت ان بالاعداد المقصودة فقرات قصيرة منزوعة بعناية بواسطة موسى • ولاحظت أن بعضها فى الصفحات المخصصة لأنباء الجرائم وأخبار السينما والتليفزيون •

انتابنى الشك فى أمر الفقرات المقتطعة ، فقررت أن أواصل البحث لاقطع الشك باليقين • وعندما عدت فى اليوم التالى لهذا الغرض ، فوجئت بصدور تعليمات تحظر استخدام المكتبة على غير العاملين بالصحيفة •

وتكرر الأمر معى بحذافيره فى دور الصحف الأخرى ، بدءا من الموسى الخفى ، الى الأوامر التى تحول بينى والتردد على مكتباتها •

لجأت الى دار الكتب ، فقدمت الى المختصين قائمة بالاعداد التى أريد الاطلاع عليها من الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية • وبعد عدة ساعات من الانتظار ، أبلغت بأن الاعداد التى طلبتها غير متوفرة فى الوقت الحالى بسبب وجودها فى قسم التجليد •

لم يعد لدى شك فى الأمر ، فأعلمت فكرى الى أن توصلت الى حيلة ماكرة • فقد مضيت الى مكاتب احدى المجلات النسائية الاسبوعية ، وطلبت الاطلاع على الاعداد الصادرة بعد اسبوع او اسبوعين من كل تاريخ لدى • وعندما سألنى الموظف عن بغيتى، احتطت للأمر فقلت أنى اعد بحثا عن أشهر الجرائم فى التاريخ العربى المعاصر • فقد كان من عادة هذه المجلة أن تغطى أهم أحداث الاسبوع ، كما أنها أفردت ركنا خاصا ، فى كل عدد ، لاخبار الجرائم ، وآخر لأخبار الفن •

عكفت على العمل بحماس أوقدته ، فى الغالب ، الظواهر الغامضة التى صادفتني • وحالفنى الحظ فعثرت في أحد الأعداد الصادرة حوالى أول تاريخ لدى ، على صورة للدكتور فى شبابه ، بصفته وجها جديدا في ميدان الانتاج السينمائى ، وذلك بمناسبة نجاح فيلم كوميدى شارك فى انتاجه •

وبعد عدة أشهر من التاريخ الثانى لدى ، عثرت على مقال يسرد وقائع جريمة غريبــة ، اعتدى فيها احد الشبــان على « شخصية فنية معروفة » وصفتها المجلة بأنها « ذات تاريخ وطنى حافل » •

فهمت من ثنايا المقال أن هذه « الشخصية » كانت على علاقة باخت المعتدى • وذات يوم وجدت الفتاة ميتة فى ظروف غامضة ، فاتهمه أخوها بأنه السبب فى وفاتها • ولم يعبأ احد بهذا الاتهام ، فما كان من الاخ الا أن أطلق عليه الرصاص ، فأحدث به اصابة طفيفة •

وأغرب ما فى الامر أن المجنى عليه اتهم الجانى فى التحقيق بأنه عضو فى منظمة يسارية ، ثم تصالح معه وألحقه بوظيفة فى الشركة التى يديرها •

حدثنى قلبى بالاسم الحقيقى لهذه الشخصية الفنية • وتأكد حدسى عندما عرضت المجلة لتاريخ صاحبها وذكرت أنه كان ، قبل الثورة ، عضوا فى احدى الجمعيات الوطنية المتطرفة التى قامت بدور بارز فى الكفاح ضد الاستعمار الانجليزى (فهى احدى الحقائق المعروفة عن حياة الدكتور) وأنه ترك دراسته عام ١٩٤٧ وسارع الى فلسطين على رأس كتيبة من زملائه المتحمسين حيث

اشترك فى الحرب ضد العصابات الصهيونية التى كانت تقاتل باستماتة لانشاء دولة اسرائيل · وفى اعقاب الثورة استكمل دراسته واتجه الى ميدان الانتاج السينمائى ··

سعدت بهذا الاكتشاف ، وواصلت العمل بنفس الأسلوب فأمكننى أن أجمع بعض المعلومات القيمة ، وان استغرق منى ذلك وقتا ليس بالقصير ·

فقد عرفت أنه شارك فى تكوين شركة لانتاج المياة الغازية عشية العدوان الانجليزى ــ الفرنسى ــ الاسرائيلى على مصر ، وأنه كان أحد الذين تقدموا لشراء الشركات الاجنبية بعد تمصيرها فى أعقاب ذلك العدوان ·

وعثرت على نص كلمة ألقاها فى مؤتمر اقتصادى عقد بدمشق غداة الوحدة المصرية ــ السورية ، وصف فيها الوحدة العربية بأنها الرسالة الخالدة لكل عربى فى هذا القرن ، وهاجم الشيوعيين متهما اياهم بالخيانة لأنهم سبق أن وافقوا على التقسيم الصادر عام ١٩٤٨ والذى كان يسمح بقيام دولتين فى فلسطين ، واحدة للعرب وأخرى لليهود ·

ووجدت بعض الانباء المتفرقة قليلة الأهمية عنه فى تلك الفترة · ثم خدمنى الحظ ، الذى لا يعطى هباته الا لمن يعمل بدأب ، فعثرت بالصدفة على خبر صغير فى باب الاخبار الاجتماعية يشير الى محاضرة ألقاها فى أحد الاندية النسائية بالجزائر عن « المفهوم العربى للاشتراكية » · وفى هذا الخبر وجدت اسمه ، لاول مرة ، مسبوقا بلقب « الدكتور » · وبعد ذلك بشهور وقعت على اعلان كبير فى صفحة كاملة يتضمن تهنئة من احدى شركات المقاولات التابعة للقطاع العام لرئيس الدولة على ما حققه من انتصارات ·، وأسفل الاعلان ، قرأت اسم الدكتور بصفته رئيسا للشركة ·

انقطعت أخباره بعد ذلك فترة طويلة الى أن عثرت باحد الاعداد الصادرة فى صيف عام ١٩٦٧ ، على اشارة الى سلسلة من المقالات نشرتها له احدى الصحف اليومية ، يحلل فيها أسباب الهزيمة ، ناسبا الى الاتحاد السوفيتى المسؤولية الاساسية عنها ·

ويبدو أنه تزوج فى هذه الفترة ، للمرة الثالثة ، من ابنة أحد ملوك البترول العرب ، المعروفة بنزواتها وشطحاتها الغريبة ، اذ أن أنباءها سرعان ماطغت على أنبائه هو ، وهو أمر طبيعى بحكم تخصص المجلة · ولم أجد فى اعداد السنوات التالية سوى اشارات مقتضبة الى اعماله الواسعة ، والمشروعات الضخمة التى يتعهدها بمختلف أرجاء المنطقة ، وخاصة بعد حرب اكتوبر ، ويقوم فيها بدور همزة الوصل بين المولين الاجانب ، والمستهلكين المحليين ·

شعرت أن المجلة النسائية قد أدت دورها بالكامل ، وأن الوقت قد حان للبحث فى اتجاه آخر ، فشكرت مدير المكتبة على ما قدمه لى من مساعدة ، وعرفنى الرجل بنفسه ·

استولت على الدهشة لأنه كان اسما معروفا بين كتاب الصحف فى أحد الأيام فغمغمت :

« لكن كيف ··· ؟ »

رد على سؤالى المبتسر قائلا :

« اسأل من كنت تفتش عن أخباره » ·

انزعجت للغاية وسارعت أقول : « من تقصد ؟ »

ابتسم وقال : « لا تخف ··· فلن أذكر شيئا لأحد على الاطلاق » ·

قلت : « لست خائفا · فهناك جهات ذات نفوذ ـ لست فى حل من ذكرها ـ تدعمنى » ·

اتسعت ابتسامته وقال : « لن ألومك اذا خفت » ·

سألته : « كيف عرفت ·· ؟ »

أجاب : « منك · فعندما تجلس مكانى هذا عدة سنوات ، يمكنك من النظرة الأولى أن تفهم هوية الاشخاص الذين يترددون على المكتبة لينقبوا بين صفحات الاعداد القديمة · وعندما لاحظت أنك تختلف عنهم ، ثار فضولى ، ولم يكن من الصعب أن أتتبع الصفحات التى تتوقف عندها ، وأن استنتج اهتمامك به » ·

عدت أسأله : « وما الذى جعله مسؤولا عن انزوائك فى هذا المكان ؟ »

قال : « مقال نشرته » ·

تطلعت اليه متسائلا فأضاف : « يمكنك أن ترجع اليه بسهوله » ·

رويت له ما صادفنى من صعوبات فى البحث عن أخبار « الدكتور » بالصحف اليومية ، فقاطعنى قائلا :

« ستجد مقالى بالتأكيد لأن الصحيفة التى نشرته لا يهتم بها أحد · ثم أنى لم أذكره بالاسم » ·

أعطانى تاريخ نشر المقال وتمنى لى التوفيق ، فذهبت من فورى الى دار الصحيفة التى نشرته ، وهى يومية مسائية محدودة الانتشار ، ولهذا السبب لم يتجه اليها اهتمامى فى بادىء الأمر ·

بحثت عن المقال دون أن أكشف لأحد عن غرضي فعثرت عليه تحت عنوان مثير ذى رنة مأساوية ، هذا نصه :

« من يخلع الأشجار ؟ »

وتحت هذا العنوان ، عرض الكاتب لظاهرة اختفاء الاشجار من شوارع القاهرة وحدائقها القليلة المتبقية ، وقال ان الصورة المنظمة التى تتم بها عملية الاقتلاع توحى بأن ثمة أشخاص ذوى نفوذ خلفها . وتساءل عما اذا كانت هنالك علاقة بين هذه الظاهرة وبين الأزمة المفتعلة فى سوق الأخشاب والتى رفعت أسعارها وأوجدت لها سوقا سوداء .

نقلت محتويات المقال فى كراسى ، ثم خطر لى أن أنتهز الفرصة لاواصل البحث فى اتجاه جديد . فعكفت على مجلدات الصحيفة أراجعها بسرعة فى أماكن محددة هى الاعلانات الاجتماعية والتجارية واخبار الوفيات ، حوالى نفس التواريخ التى استرشدت بها من قبل .

لم أكن أتوقع كم المعلومات التى عثرت عليه عن هذا الطريق . فمثلا ، من خلال سلسلة من برقيات الشكر الموجهة منه الى رئيس الدولة ، والتهانى الموجهة اليه من عدد من الشخصيات الهامة ، علمت أنه نجح فى الانتخابات العامة وصار عضوا فى المجلس النيابى .

ومن نعى طويل لأحدى السيدات التى تمت اليه بصلة القرابة، تبينت الشبكة الواسعة من العلاقات التى تربطه باشهر العائلات وأغناها ، وبشخصيات تحتل أرفع المناصب فى القضاء والشرطة والجيش والادارة وعالم المال والاعمال .

وقادتني الاعلانات ، تلك الوسيلة الناجحة للتواصل بين أبناء العصر ، الى اكتشاف آخر مثير .

فقد لفت نظرى ، سلسلة منها ظهرت بكثرة ، فى السنوات الاخيرة ، على الصفحة الأولى من الجريدة ، عن العطور الفرنسية والسجائر الامريكية والاجهزة الصوتية اليابانية . وكانت مجردة من اسم المعلن ، بينما جرت العادة فى امثال هذه الاعلانات ، على أن يذكر اسم المستورد أو العميل ، بلغة اللجنة ، أى الوكيل المحلى .

وكان من شأن العمل المتواصل الذى قمت به فى الآونة الاخيرة ، أن نشط ذهنى ، وأخذت أميل الى التغلغل فى أعماق الامور التى تعرض لى ، واحاول استنتاج ما قد يكون خلفها من دوافع ، وما قد يربط بينها من علاقات . هكذا ثار فضولى ، فمضيت الى ادارة الاعلانات بالجريدة ، وزعمت انى مراسل لاحدى المجلات الاقتصادية الاجنبية ، وأنى أعد تحقيقا واسعا عن الدعاية التى تنشرها وسائل الاعلام العربية للسلع الاجنبية .

شغل المسؤولون فى الادارة بالترحيب بى عن التأكد من مزاعمى ، خاصة بعد أن ابديت اعجابى بالشعارات الناجحة التى ترفعها اعلانات العطور والسجاير ، وترددها الجماهير فى سلاسة تامة . واستطعت أن اكسب ودهم عندما مازحتهم متسائلا عمن لم يذهب بعد ، منهم ، الى الفلتر . وبذلك اصبح من السهل على أن أحصل على ما أشاء من معلومات .

لم أدهش عندما علمت منهم أن الجهة المحلية التى تستورد السلع المذكورة هى مؤسسة يديرها الابن الاكبر للدكتور من زوجته الاولى ، فقد توقعت شيئا من هذا القبيل . لكنى فوجئت

حقيقة ، حتى كدت أنفجر ضاحكا ، عندما أروني تصميما لأعلان صادر عن نفس المؤسسة ، يعكفون على اعداده ليظهر قريبا على الصفحات الاخيرة بكاملها من كافة الصحف القومية ٠

فلم يكن هذا الاعلان يبشر المصريين باكثر من عودة الكوكاكولا الأصلية اليهم ٠

٣

ظللت أتردد على مكاتب الصحيفة عدة أشهر ، وقد أغرتني الاكتشافات التى توصلت اليها ، فضلا عن عـدم مصادفتى لأى عقبات ظاهرة ، بمداومة البحث فى نفس الاتجاه ٠

وخرجت أثناء ذلك بحصيلة وافرة من المعلومات ، ملأت عدة كراسات ٠ حقا ان جانبا منها لم يكن وثيق الصلة بأمر « الدكتور » فقد اتسعت دائرة اهتمامى بالتدريج ، دون وعى منى ، وامتدت الى بعض الأمور العامة ٠ وبدا وكأن الانباء التى سبق أن قرأتها فى حينما ، تصافح عيني الآن للمرة الاولى ٠ والظاهر انهـــــا اكتسبت عمقا جديدا بفضل المنظور الزمنى ، الذى أتاح لى رؤيتها فى ارتباطاتها المتشعبة ٠

وكنت أعود الى منزلى فى نهـــاية كل يوم مرهقا ، أشكو الدوار وصعوبة التنفس ، فارتقى طوابقه السبع فى اعياء الى مسكني فى الطابق الأخير ٠ وبعد أن اغتسل وأتناول طعامى ، أغفو قليلا ثم أنهض لأعمل من جديد ، فأنقل ما دونته فى الصباح الى بطاقات صغيرة من الورق المقوى ، زودنى بها صديق عزيز

دون أن يخفى اشفاقه على ، مسجلا فى أعلاها تاريخ نشر المادة ، ومصدرها ، ورأس الموضوع ، توطئة لعمل تصنيف ما يساعدنى على الانتقال الى المرحلة الثانية من البحث · ولا انتهى من ذلك قبل ساعة متأخرة من الليل ، فأنام نوما قلقا تتخلله أحلام مزعجة يتألف معظمها من عناوين الصحف · والقليل النـــادر من هذه الاحلام كان مصدر متعة خاصة اذا ما تصدرته الصور شبه العارية لجميلات العالم وفاتنات السينما ، التى كانت تصادفنى بين الحين والآخر ·

وفى الصباح أغادر فراشى فى صعوبة ، إذ أجدنى فريسة لحالة من الهبوط ، يضاعف منها تمثلى للمصاعب التى سأعانيها فى الطريق ، قبل أن أصل الى مبنى الصحيفة ، والأخطار المبهمة التى تحف بعملى · ولا أستعيد حيويتى الا عندما استعرض فى ذهنى ماوصلت اليه من نتائج ، والعـــالم العجيب الذى فتحتـــه أمامى ·

والواقع أن تغييرا ما طرأ على فى الشهور الأخيرة ، فقد كنت فى السابق سئمت كل شيء · ولم يكن مثولى أمام اللجنة ، وتمسكى بالفرصة السانحة لتطوير مواهبى ، سوى محاولة من جانبى لتجديد الاهتمام بالحيـــاة · ولم يلبث البحث فى أمـــر « الدكتور » أن أخذ بمجـــامعى ، حتى أنى بدأت أخشى الموت ، وأدعو الله أن يجنبنى حوادث المواصلات والازمات القلبية ، الى أن أفرغ منه ·

واضطررت فى أحد الايام الى الانقطاع عن الخروج ،عندما شعرت بالارهاق ، فجلست أراجع البطاقات التى دونتها ووضعتها بنظام فى صندوق أحذية من الكرتون ، ليسهل على العودة اليها ، واستخراج ما اريده منها ·

اكتشفت أنه صار لدى كم من المادة لا بأس به ، يغطى الخطوط الرئيسية للبحث • لكنى كنت ماأزال جاهلا بكثير من خلفيات بعض النقاط الهامة • وهى أمور لا جدوى من التماسها فى الصحف المصرية او العربية ، التى تحول الاوضاع السياسية والتقاليد الاجتماعية بينها والخوض فى أعماق الظواهر وحقائق الأمور • عندئذ خطر لى أن أستعين بالمجلات الأجنبية • لكن أين يتأتى لى أن أجد مجموعات من الاعداد القديمة لاحداها ؟

كان الصديق الذى أمدنى بالبطاقات هو الذى اقترح على أن التمس ضالتى فى مكتبة السفارة الامريكية • فذهبت الى مقرها الجديد ، الذى انتقلت اليه بعد أن أحرقت الجماهير الثائرة المقر القديم سنة ١٩٦٥ ، احتجاجا على مساندة الولايات المتحدة لموبوتو ، رئيس زائير التى كانت تعرف وقتها بالكنغو كينشاسا ، ودورها قبل ذلك فى اغتيال الزعيم الوطنى لومومبا •

وجدت بالمكتبة مجموعة من الاعداد المتفرقة لأشهر المجلات الامريكية مثل « تايم » و « نيوزويك » ، فقلبت بين صفحاتها ، مركزا اهتمامى على تلك المخصصة لامور الشرق الاوسط ، دون أن أعبأ بمطالعة الصفحات الاخرى أو النظر الى الاغلفة • ولهذا لم أنتبه الى أن أحد الاعداد الذى أمسكته فى يدى ، يحمل صورة ملونة للدكتور على غلافه ، الا بعد أن ألفيتنى أرتجف من الانفعال وأنا أقرأ موضوعا ضافيا عنه ، غطى عددا من الصفحات ، وامتلأ بقدر وافر من المعلومات المثيرة •

كان تاريخ العدد يعود الى عام مضى • أما الموضوع فكان بمناسبة زواج ابنته من رئيس عربى • وكان هذا نبأ جديدا على لأن صحفنا لم تنشر الأمر فى حينه • ويبدو أن الزواج أثار عاصفة من التعليقات وقتها ، لا بسبب فارق السن وحده ، الذى

يربو على ثلاثين من الإعوام ، وانمـا أسـبـاسا بسبب المدلولات السياسية والاقتصادية له ٠

وانتهزت المجلة هذه الفرصة فقامت بعرض سريع لسيرته ، وكيف نشأ فى أسرة فقيرة ، ثم ابتسم له الحظ عندمـــا قامت الثورة ، بحكم قرابته لأحد الذين آلت اليهم الامور ، وهى الصلة التى مكنته من وضع أول لبنة فى صرح مجده ، فبفضلها استطاع أن يحصل لاحد المنتجين السينمائيين على تصريح بتصوير ثلاثة أفلام كوميدية عن الجيش والطيران والاسطول ، مقابل المشاركة فى عائدها ٠

ومضت المجلة فقالت أنه وقد تكون رأس المال ، لم يكن من الصعب عليه أن يضـــاعفه فى وقت قصير ٠ فلـــم يكن خطوه أن المشرفين على الاقتصاد ، وقد استهوتهم الافكار الاشتراكية ، كبلوه بعديد من القيود التى يتطلب اختراقها ملكات خـــــاصة وبالتالى ثمنا مرتفعا ٠ واذا كان « الدكتور » قد استفاد من تذليل هذه الصعوبات لمن يشاء ، بحكم علاقاته الواسعة التى دعمهـــا بسلسلة من الزيجات الناجحة ، فان الذى حقق الفائدة الحقيقية هو الاقتصاد القومى نفسه ٠ وضربت المجلة مثلا على ذلك بدوره خلال رئاسته لاحدى شركات المقاولات التابعة للقطاع العام ٠ فقد كان يعهد بأغلب عملياتها لشركات خاصة يشترك فى ملكيتها ٠ ومهما كان الرأى فى هذا العمل ، فلا جدال فى أنه ساهم فى دعم النشاط الخاص وانجاز عديد من المشروعات الهامة فى مجال الخدمات ، يستمتع المصريون اليوم بثمارها ، وكان من المستحيل أن تتحقق لو ترك أمرها للقطاع العام وحده ٠

وفى تلك الفترة تعرض « الدكتور » لمحنة عنيفة ، اذ قبضت عليه السلطات وأودعته السجن ٠ أما السبب فيصعب تحديدة ،

ان تضاربت الاقاويل بشأنه · فقيل أنه كان مشتركا فى محاولة لقلب نظام الحكم ، وقيل أنه تمادى فى الدعوة للأفكار الاشتراكية · وهناك من أكد أنه كان ضالعا فى احدى العمليات المالية المريبة ، التى كان القانون يحرمها وقتذاك ·

وتعرضت المجلة للشائعات المتباينة التى أحاطت به فوصفتها بأنها الضريبة التى يدفعها كل ناجح فى البلاد العربية · وضربت مثلا بشائعة تجزم أنه حضر الحفل الراقص الشهير الذى اقيم عشية العدوان الاسرائيلى عام ١٩٦٧ فى احدى القواعد الجوية المصرية · وقالت أن هذه الشائعة لا تعنى شيئا على الاطلاق ، لأن أغلب القادة المصريين حضروا هذا الحفل · أما محاولة الربط بينه ، فى شائعة أخرى ، وبين تسليم الجولان ، فأمر ينقصه الدليل · ودللت المجلة على وطنيته بالدور الذى لعبه فى حرب الاستنزاف ، حيث تولى مقاولة تنفيذ التحصينات الهائلة التى تكلفت ملايين الدولارات ، وان لم تتركه الشائعات وشأنه فى هذا العمل الجليل ايضا ·

وقالت المجلة أن مرحلة جديدة بدأت فى حياته عندما تحررت مصر من السيطرة السوفيتية فى السبعينات ، فنقل نشاطه الى ميدان السلاح ، الذى يحقق العاملون فيه دائما أرباحا خيالية ، وأصبح من كبار مورديه ، مما كان له الفضل فى الانتصار الذى حققته حرب اكتوبر · الا أن الثمار الرئيسية لهذه الحرب ، الناشئة عن الارتفاع الصاروخى لأسعار البترول فى أعقابها ، لم تسقط فى يده ، وهو ما يطمح الآن لتحقيقه بزواج ابنته ، بعد أن فشل فى ادراكه من خلال زيجته الثالثة التى لم تعمر طويلا ·

وبالرغم من أن الدكتور لم يتوقف عن توريد الاسلحة للحروب المحدودة فى الشرق الاوسط وافريقيا ، وأعلن فى اكثر من مرة عزمه على تشكيل فرقة قوية من المرتزقة مستعدة لخدمة من يدفع

الثمن ، فانه اصبح من دعاة السلام ، وعمل بنشاط فى استيراد السلع الغذائية والسيارات والطائرات ، مستفيدا من سياسة الانفتاح ٠

وفى هذا الصدد استشهدت المجلة بالقول السائر فى العالم العربى : « اذا لم يكن للدكتور اصبع فى احدى الصفقات ، كان له بالتأكيد نصيب فى عائدها » ٠

واستطردت تقول أن الأمر لا يخلو أحيانا من بعض القصص الطريفة ، مثل قصة المليون بدلة من مخلفات الحرب الفيتنامية التى تبرع بها الجيش الأميركى للفلاحين المعدمين فى مصر ، فوجدت طريقها الى مخازنه حيث باعها بدوره لعدد من التجار مقابل ستة ملايين من الجنيهات ٠

واختتمت المجلة مقالها قائلة : « ان أحدا لا يملك الا الاعجاب بحيوية الملياردير العربى ونشاطه ، ولا شك أن هذه الحيوية التى برزت فى العقد الأخير ، وطبعته بطابعها ، ما زال أمامها وقت طويل قبل أن تذوى ، رغم الثمن الذى وضعه الارهابيون لرأسه بعد ما تردد عن تعاونه مع الشركات الاسرائيلية ٠ واذا كانت سنه الآن ، تجعله فى حاجة الى وسائل اصطناعية وكيماوية ، أكثر من مجرد شد جلد الوجه ، تعينه على القيام بواجباته العائلية أثناء زياراته لقصوره العديدة المتناثرة فى أرجاء العالم العربى ، فانه لا يحتاج الى شىء فى صفقاته المالية والعمليات السياسية التى يشارك فيها من وراء ستار ٠ ومهما قيل بشأن مبادئه الاخلاقية ، فان أحدا لا يستطيع أن ينكر أن « الدكتور » وأمثاله ، يحملون مشعل التقدم والسلام والاستقرار للمنطقة التى طال بها التخبط فى ظل التطرف » ٠

نقلت المقال كاملا الى كراسى ، واستغرق منى ذلك عـدة ساعات ، عدت أثرها الى منزلى راضيا ، فعكفت من فورى على تفريغه فى بطاقات مستقلة ، واضافة بعض اجزائه الى البطاقات القديمة حسب موضوعاتها ٠

وما أن انتهيت من ذلك حتى شعرت بأنى قد استكملت استعداداتى ، ولم يعد أمامى مايحول دون البدء فى المرحلة الثانية من البحث ٠

كنت أميل الى أن أجعل من سيرته العمود الفقرى لعملى ، فأبدأ بالاسرة التى ولد فيها ، وظروف طفولته ، ثم انتقل الى مرحلة التلمذة والمراهقة ، ومنها الى نشاطه الوطنى ثم مراحل صعوده التى يمكن حصرها بين ثلاث حروب متتابعة هى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، والعدوان الاسرائيلى عام ١٩٦٧ وأخيرا حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، منتهيا بالذروة التى يحتلها الآن على نطاق العالم العربى ٠

لكنى لم ألبث أن تبينت الثغرات التى يمتلىء بها هذا المنهج ٠ فالمعلومات المتوفرة لدى عن المراحل الاولى من حياته قليلة للغاية ، ولست أعرف حتى الآن ما اذا كان تلقيبه بالدكتور يرجع الى شهادة علمية حصل عليها بالفعل ٠ كما أن التقسيم نفسه تقليدى ليس فيه شىء من ابتكار أو تفرد ، وأهم من هذا كله أنه يضعنى وجها لوجه أمام سؤال يتعين الاجابة عليه وهو : وماذا بعد الذروة ؟ وواضح للجميع العلاقة الوثيقة بين السؤال وأحد المعانى التى أعطاها العرب لمصطلح اللمعان ، وهو تحرك الجنين فى الاحشاء ، فضلا عن خطورة الاجابة ذاتها ، منذ كان التكهن بمصيره ، بعد كل هذه المعايشة والدراسة ، أمرا غير عسير ٠

وكنت غارقا فى التفكير حتى أنى لم أشعر بحلول الظلام • وعندما تنبهت الى ذلك أضأت المصباح الكهربائى المثبت الى مكتبى، وعندئذ دق جرس الباب •

وقد سبق أن ذكرت أنى أقطن الطابق السابع ، وأشرت الى أن المنزل بلا مصعد • فرغم أن القانون يحتم على مالك المنزل الذى يزيد عدد طوابقه عن خمسة ، أن يزوده بمصعد،فان مالك منزلى تمكن من التحايل على القانون بسهولة شديدة ، اذ بنى الطابقين الاخيرين الى الداخل قليلا ، وعندما لم يعد من السهل رؤيتهما من الطريق، اطمأن القانون وسكت ، رغم ما تقدمنا به ، نحن السكان ، من شكاوى عديدة الى الجهات المختصة •

المهم أن هذا الوضع لم يكن يشجع أحدا على زيارتى ، وهو أمر لم يكن يزعجنى ، بل على العكس كان مبعث راحة بالغة وخاصة فى الآونة الاخيرة بحكم انشغالى الشديد • واذا مافعل أحدهم ، فانه يضطر بالطبع الى ارتقاء الدرج ، وعندما يبلغ الطابق الاخير تكون خطواته قد أبطأت من التعب ، وازداد وقع أقدامه ثقلا • وبسبب دقة الجدران ـ الناشئة عن محاولة أخرى من محاولات المالك للتحايل على قواعد البناء المحددة فى القانون ـ أتمكن من سماع خطواته بوضوح وأنا جالس الى مكتبى ، من قبل أن يدق الجرس •

والحق أن أذنى التقطتا وقع الاقدام من فترة • لكن الأمر لم ينتقل الى وعيى لأنى كنت غارقا فى التفكير ، فلم أنتبه الى كثرة عددها •• ولهذا السبب كانت دهشتى بالغة عندما فتحت الباب ووجدت ذلك العدد من الرجال والسيدات الذين احتشدوا فوق الفسحة الضيقة الواقعة أمام مسكنى •

كان الدرج غارقا فى الظلام ، لأن المالك منع عنه النور الكهربائى ، فى محاولة للضغط على السكان كى يسحبوا شكاويهم •

ولهذا السبب لم أتبين وجوه الزائرين من الوهلة الأولى · ومالبثت دهشتى أن تضاعفت بعد لحظات ، عندما تعرفت فيهم على أعضاء اللجنة التى مثلت أمامها منذ ما يقرب من عام ·

دق قلبى فى عنف وأنا أتنحى عن الباب قائلا فى اضطراب :

« تفضلوا ·· تفضلوا ·· لم أكن أتوقع ·· لم أكن أطمع ·· » ·

وهذا حقيقى · فلم أتصور أبدا أن اللجنة يمكن أن تزورنى فى منزلى · بل انى فى الفترة الأخيرة ، بسبب انغماسى فى العمل ، نسيت وجودها تقريبا ، ونسيت حتى الغرض الاصلى من الدراسة التى انهمكت فى اعدادها ·

لم ينتظر أعضاء اللجنة دعوة ثانية ، ودلفوا الى مسكنى الصغير ، فانتشروا فى أرجائه على الفور ، يتأملون محتوياته ، ويلقون بنظراتهم خلف قطع الاثاث وتحتها · واهتمت العانس وزميلتها العجوز بمحتويات المطبخ الذى يواجه المدخل ، بينما أحاط اثنان من العسكريين الثلاثة ذوى الرتب الرفيعة بثلاجة كهربائية قوية لدى من انتاج الصناعة المصرية فى الستينات ، وجعلا يقارنان بينها وبين الثلاجات الحديثة المستوردة ·

أغلقت الباب ووقفت حائرا عاجزا عن الفهم · بحثت بينهم عن رئيسهم الذى لا يرى جيدا ويسمع باذن واحدة فقط ، فلم أجده · واستنتجت أنه اما لم يأت معهم أصلا أو عجز عن صعود الدرج بسبب سنه · ولاحظت وجود الرجل القصير قبيح الوجه ، وزميله الاشقر ذى العينين الملونتين · وكما حدث فى المرة السابقة لم اتمكن من احصاء عددهم ، من جراء عجزى عن التركيز ، وانشغالى بايجاد تفسير للزيارة غير المتوقعة ·

قلت بصوت جاهدت أن أجعله مرتفعا ثابتا :

« هل أعد شايا أم قهوة ؟ » ٠

لم يرد على أحد فلزمت الصمت ، ورأيتهم يتجمعون أمـــام صفوف الكتب التي وضعتها بنظام على أرض الممر المؤدى الى غرفة نومى ، ويقلبون بينها ٠ ووجدتهـا فرصة نادرة ـ لم أتعمدها ـ يتبينون منها سعة اطلاعى ، خاصة وأن الكتب فى لغات متعددة ، وفروع متباينة ٠

انفصل الرجل القصير فجأة عن الجميع واتجه برفقة زميله الاشقر فى خطوات سريعة الى الغرفة الداخلية التى أعمل وأنام بها ، فهرعت خلفهما ٠

كانت هناك أكوام من الكتب والصحف والمجلات فى كل مكان، لكنهما تجاهلاها ، ووجها اهتمـــامهما الى المائدة الصغيرة التى استخدمها فى الكتابة ٠ وكان سطحها مكتظا ببعض الملفـــات والصحف فى جانب ، وكوم من الكتب يعلوها أحد المعاجم فى جانب آخر ، بينما استقر الكراس الذى كنت أعمل به فى الوسط والى جواره البطاقات التى فرغت لتوى من ملئها ، وصندوق الاحذيـة الذى اصطفت به بقية البطاقات فى نظام كنت فخورا به ٠

دار القصير حول المائدة وجلس فوق مقعدها ، وانكب على البطاقات يفحصها باهتمام وهو لا يخفى انفعاله ٠ أما زميله فقد وقف يقلب فى الملفات والصحف دون أن يشى وجهه بتعبير ما ٠

تكلم الأخير فجأة وهو يستخرج قطعة كبيرة من الورق المقوى من بين الملفات ، فقال : « ما هذا ؟ » ٠

كان يشير الى عدد من الصور المنتزعة من المجلات المصورة ، ألصقتها فى براعة فوق قطعة الورق حتى بدت وكأنها صورة واحدة، يتصدرها الرئيس الأميركى كارتر ، معطيا وجهه لنا ، وهو ينظر فوق رؤوسنا ، بما يتفق مع منصبه من جلال ، والى جواره مباشرة صوره صغيرة الحجم للغاية لرئيس الوزراء الاسرائيلى بيجين ، وقد استبدلت سرواله الطويل بآخر صغير لاحد التلاميذ ، فبدا الاثنان كما لو كانا أبا وابنه • وفى نصف دائرة امامهما ألصقت مجموعة من صور أبرز الشخصيات فى العالم العربى ، من رؤساء وملوك وقادة ومفكرين ورجال أعمال ، راكعين في وضع الصلاة وقد أعطوا مؤخراتهم لنا •

ابتسمت مجيبا : « انها هواية أمارسها بين الحين والآخر • فأنا أقص صور الاشخاص المعروفين من المجلات وأعيد لصقها على الورق المقوى بعد أن أختار لها الاوضاع التى تناسبها ، وأضيف اليها صورا أخرى فى أوضاع مكملة ، الى أن أحصل على لوحة متكاملة » •

ظل يتأمل اللوحة باستغراب ، فأضفت بعد لحظة : « كما تعلمون ، فان هناك مدرسة فنية كاملة تستند فى عملها على أساس مشابه • وللوهلة الأولى يبدو الامر بسيطا للغاية ، لكن الوصول الى نتائج قيمة يتطلب النجاح فى ايجاد ارتباطات تجمع بين الطرافة والجدة من ناحية ، والعمق الفكرى من ناحية أخرى » •

لم يفه بشىء ، وانما وضع اللوحة على جانب كأنما يريد العودة اليها فيما بعد ، واستأنف البحث بين أوراقى •

أما القصير فخاطبنى دون أن يرفع بصره لحظه عن البطاقات التى كان يفرزها فى عناية : « لم نكن نتصور أنك جمعت هذا القدر من المعلومات • انه أمر يثير الاعجاب حقا ، بقدر ما يدعو للأسف» •

لم يدهشنى معرفة اللجنة بما أفعل ، ولا استخدام القصير للغة العربية فى حديثه ، لأنى كنت متأكدا من اجادة اعضاء اللجنة لها • لكنى انزعجت لكلمته كثيرا ، وانتظرت فى قلق أن يوضح ما يعنيه •

رفع الى عينيه فاكتشفت لأول مرة أن بهما حولا منفرا زاد خلقته قبحا على قبح ، ومضى يقول :

« كنا نظن أن العقبات التى صادفتك ستصرفك الى موضوع آخر • والواقع أننا كنا نتمنى ذلك لأننا •• لأن هناك بين الاعضاء الموقرين من يعلق آمالا كبيرة عليك » •

غاض الدم من وجهى وتعلقت عيناى بعينه القبيحتين ، بينما استطرد وهو يتخلى عن البطاقات ، ويتراجع بكرسيه الى الوراء :

« يمكنك أن تقرر لنفسك الآن ، ما اذا كنت ستستمر فى هذا الموضوع أو تنتقل الى غيره • فنحن لا نقسر أحدا على شىء » •

قلت بانفعال : « بعد كل هذا الوقت ؟ •• لقد أوشك العام على الأنصرام » •

قال بحزم : « هذه نقطة غير مهمة • فبوسع اللجنة أن تعطيك من الوقت ما تحتاج اليه » •

ضممت يدى وضغطتهما فى عنف وأنا أقول فى صوت متوسل، متغلبا على كراهيتى له التى كان هو مبعثها :

« لكننى قطعت شوطا طويلا وقاربت على الانتهاء » ٠

قال أحد العسكريين الذى دخل الحجرة أثناء الحوار واستمع الى شطر منه :

« ولم تفكر فى مغزى ما تقوم به ونتائجه ؟ » ٠

قلت مدافعا عن نفسى :

« لقد قمت ببحث رائده الموضوعية الشديدة ٠ ولم أعن بغير الحقائق المؤكدة والتعليلات العلمية ٠ وقد انتهيت تقريبا من جمع المعلومات الضرورية وترتيبها ٠ ولم يعد أمامى سوى استخلاص مدلولاتها ، والربط بينها فى تحليل كامل متسق » ٠

قال القصير فى حدة : « وهذا بالضبط ما حفزنا الى الحضور لتوجيه النصح اليك » ٠

كان بقية أعضـــــاء اللجنة قد أخذوا يتوافدون ، فجلست السيدتان على حافة الفراش ، وبجانبهما أحد العسكريين ٠ واستقر عسكرى آخر على مقعد بمسندين الى جواره ٠ وانضم الثـــالث وبعض الاعضاء الى العضو الأشقر عند المائدة ٠ واستند آخرون الى مسندى المقعد وخزانة الملابس وباب الغرفة ٠ وقدم اليهم القصير بعض البطاقات ، لاحظت بينها تلك المستقاة من المجلة الامريكية ، فتناقلوها بينهم فى صمت ، ثم جعلوا يتطلعون الى ، وقد أحاطوا بى فى شبه حلقة ٠

توجهت اليه بالحديث مستعطفا :

« لقد اخترت شخصية الدكتور بعد تفكير وتمحيص طويلين ، فانتقاء ألمع الشخصيات فى العالم العربى أمر بالغ الصعوبة بحكم تعدد البلاد وانتشار التعليم وتنوع وسائل الدعـــاية وكثرتهــا وبالتالى ... » .

قاطعنى القصير فى غضب :

« وبالتالى وجود كثير من الشخصيات اللامعة ، ها أنت تعترف بالأمر » .

أجبته فى حماس :

« لكننا لن نجد من هو ألمع وأكثر حضورا فى كل مكـــان بالعالم العربى . ويكفى أن فكرة الوحدة العربية ترتبط باسمه هو بالذات ارتباطا وثيقا . فهو من دعاتها الاولين ، كما هو معروف . لكن ما يجهله كثيرون ، وما أثبته بالوثائق ، أنه أيضـــا من ابرز دعاتها والمؤمنين بها فى هذا العقد الذى انحسرت فيه الدعوة . والمثير فى الأمر أن الوحدة التى لم تتحقق فى فترة صعود الدعوة اليها ، قد تحققت الآن فى فترة انحسارها ، وهو ما لا يتبدى للرائى من الوهلة الاولى عندما يجابه بالاختلافات والمنازعات السائدة بين الأنظمة المختلفة . لكنه اذا ماتمعن الامر ، وجد تحت هذا السطح الخداع وحدة متينة لم نعهد مثلها قبل الآن ، يرجع اليه الفضل فى تحقيقها ، وهى وحدة السلع الأجنبية المستخدمة من الكافة .

« وأؤكد مرة أخرى أن الوثائق التى جمعتها قد أثبتت علاقته الوثيقة بكافة الاحـداث المصيرية التى تعرضت لها أمتنـــا طوال

الاعوام الثلاثين الماضية · واليوم تتجمع فى يده ، أكثر من أى يوم سابق ، أو أى شخص آخر ، الخيوط الاساسية لمستقبلها ·

« ويكفى للتدليل على ذلك أنه هو الذى توسط لدى الشركات العالمية العملاقة من أجل امداد امتنا بأحدث الأجهزة والابتكارات التى وصلتنا بحضـارة العصـر ، بدءا من حقائب السامسونايت والترانزستورات الى الالكترونات وطائرات الجامبو ، ومن معاجين الاسنان والحلاقة الى معطرات الفروج وعقاقير الفحولة · وفى هذا الاطار أوجد مجالا واسعا للكفاءات من العلماء وأساتذة الجامعات وخبراء التخطيط الذين عنت الانظمة العربية باعداد المئات منهـم ثم حالت بينهم بين استثمار مواهبهم بصورة تعود عليهم وعلى أمتهم بالنفع ·

« على أن هنـاك جـوانب أخرى للموضوع ، أرجو أن يتسع صدركم لسماعها · فقد استهوتنى شخصية « الدكتور » لأنى وجدت فى تناولها مجالات متعددة للبحث تكشف لكم عن مواهبى المتنوعة من ناحية ، وتعطى للدراسة نفسها أبعادا مختلفة تغنيها وتضفى المزيد على أهميتها ، من ناحية أخرى ·

« ولقد كنت أفكر فى هذه النقطة بالذات عند تشريفكم لى · وقدرت أن المنهاج التقليدى فى التناول ، الذى يقوم على تتبع تطور السيرة الشخصية ، يجب أن يستبدل بمنهاج اخر مبتكر يتألف من عدة مباحث فى فروع مختلفة من العلوم ·

« فهناك مبحث هام فى علم الجمال عن العلاقة بين الوطنية المتطرفة وخلع الأشجار ، يتصل به بحث آخر فى الاقتصاد عن دور البيع والشراء فى حياة الأمم والأفراد ، وثالث فى علم الاخلاق

حول اندثار الامانة والصدق والشرف ، ورابع فى السيكولوجيا : عن عوامل القلق التى تدفع العباقرة والرواد الى التنقل بين ميادين النشاط ، وهى دراسة قد تؤدى الى اكتشافات هامة بالنسبة لطفولة « الدكتور » وظروف رضاعته .

« وثمة مبحث خامس فى علوم السياسة والادارة حول فن صياغة وعى الجماهير ، وتوحيد معتقداتها وأذواقها ثم استبدال هذه المعتقدات والاذواق بغيرها ، بين الحين والآخر ، فى سهولة ويسر .

« وانه ليسعدنى أن أعلن بكل فخر ، أنى قد عثرت على قصائد رقيقة مجهولة من نظمه ، واشارات متناثره الى آرائه فى المسرح والسينما والغناء ، تصلح أساسا لدراسة مبدعة فى آداب العصر وفنونه .

« ويتصل بذلك مبحث مستقل عن التطور الذى لحق باللغة العربية ويتمثل فى اختفاء كلمات معينة ، وظهور كلمات جديدة ، بعضهـا منحوتات فذة ليست لهـا سـابقة مثل « التهليب » و « التطنيش » ، والبعض الآخر اشتقاقات مبتكرة من كلمات مألوفة مثل « التنويع » و« التطبيع » و « التحريك » .

« وقد أوحى لى ما يتميز به الدكتور من مرونة فى التفكير ، وقدرة على تعديل المواقف والآراء التى يثبت خطؤها ، أو يتعذر تحقيقها ، ببحث فريد فى علوم التربية وبناء الشخصية . وبسبب ما أعلقه من أهمية خاصة على هذا البحث أرجو أن تسمحوا لى بشىء من الاستطراد فى هذه النقطة بالذات لأقدم الى حضراتكم مثالا لما أعنيه ، مستمدا من وقائع المقابلة الأولى التى تشرفت بها فى مقركم . وأقصد بذلك حديثى المستفيض بشأن الكوكا كولا .

« فهذه الزجاجة ، كما تعلمون حضراتكم ، دخلت بلادنا فى أواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات ، فى ظل حملة اعلانيـــة هائلة سهلت من انتشارها حتى بلغت أقاصى القرى والنجوع ، وصار اسمها على كل لسان • لكنها لم تلبث أن بدأت فى التراجـع بعد الثورة • وقد تبينت أن الدكتور كان ، مع عوامل أخرى ، مسؤولا عن هذا التراجع ، ذلك أنه شارك فى محاولة لمنافستها بشراب محلى كتب لها النجاح الى حين •

« أما الضربة القاصمة فجاءت فى بداية الستينات عندمـــا اكتشفت أجهزة المقاطعة العربية أن الشركة الامريكية أعطت حق التعبئة للاسرائيليين • وترتب على هذا أن وضعت الكوكاكولا فى القائمة السوداء ومنعت من دخول البلاد العربية ، فأصبح السوق خاليا أمام الدكتور •

« الا أن الأحوال لا تثبت على حال كما تعلمون • فمن ناحية فشل مشروع الدكتور لأسباب عديدة ، لا محل لسردها الآن ، ومن ناحية أخرى ، لم تعد للمقاطعة المذكورة ، بين ليلة وضحاها ، من ضرورة • وكان الدكتور قادرا ، فى الوقت المناسب ، على الربط بين الامرين • وسبق بجهوده من أجل ازالة العقبات والحواجز التى فصلت طويلا بين الشراب المنعش وعشاقه من المصريين • وكافأته الشركة على جهوده بأن منحته امتياز التعبئة فى زجاجة وطنية •

« ولعلكم توافقوننى ، أيها السادة والسيدات ، على أن هذا الاجراء من جانب الكوكاكولا هو ، من أحد نواحيه ، بمثابة شهادة بارزة فى حق الدكتور ، بالنظر الى أن الشركة الأم لا تعطى هذا الأمتياز الا لألمع الناس فى كل بلد •

« وأرجو المعذرة اذا كانت هذه النقطة ذكرتنى بمجال آخر واسع ، تفتحه سيرة « الدكتور » أمام الباحث الطموح ، وأقصد بذلك حياته الجنسية التى اتسمت بنشاط غير عادى • فمثل هذا النشاط قد تكون له أوجه متباينة للغاية • فمن خصوبة زائدة يمكن دراسة أسبابها للاستفادة منها وتعميمها ، الى محاولة دائمة لنفى ميول لوطية كامنة ، أو بحث عن الأم تمخض عما يتجلى فى سلوكه الاقتصادى بوضوح من قلق دائم ، ورغبة جارفة فى الانتماء » •

شعرت أن حلقى جف ، فتوقفت عن الكلام ، وتأملت وجوههم لأتبين أثر حديثى ، لكن ستارا كثيفا من الجمود كان يغطيها •

بللت شفتى بلسانى ، ثم استجمعت قوتى فى محاولة أخيرة، فانطلقت أقول :

« وأحب أن أصارحكم أيها السيدات والسادة ، بشىء آخر له أهمية خاصة • فقد كشفت لى الدراسة التى قمت بها عن عديد من العلاقات والارتباطات الخفية بين مجموعة من الظواهر المتنوعة والغريبة • وأعتقد أنى قادر ، فى وقت قريب للغاية ، على أن أميط اللثام عن بعض الألغاز والفوازير التى حيرت الكثيرين حتى الآن »•

بدا عليهم الاهتمام فجأة ، فأضفت فى صوت حاولت أن أضمنه كل ما أملك من رقة ولطف :

« انى واثق أنكم من السماحة وسعة الصدر بحيث ستتيحون لى مواصلة العمل الذى بدأته » •

تكلم الرجل الاشقر فى لهجة صارمة : « نحن لا نرغمك على شىء ، فأنت حر فى الأمر » •

وتطلع الى ساعة يده وهو يفكر بعمق ثم أضاف :

« سننصرف الآن ، فلا يمكننا البقاء أكثر من ذلك • وسيبقى رفيقنا (وأشار الى زميله القصير) معك الى أن تنتهى الى قرار » •

مد يده فتناول لوحة الرئيس كارتر • وجمع الرجل القصير البطاقات التى تضم مقال المجلة الأمريكية ، والكراس الاصلى الذى نقلت عنه ، وقدمها الى زميله الاشقر فأخذها فى صمت • ولم أجرؤ على الاعتراض •

اتجه الأشقر الى باب الغرفة ، وتبعه بقية الأعضاء ، بينما ظل القصير جالسا الى مكتبى • وعندما أردت مرافقتهم ، أشار لى أن أبقى فى مكانى •

قلت محتجا : « أخشى أن يتعثروا فى الظلام ، فالدرج بلا نور ، كما لعلك لاحظت • وبوسعى أن أعاونهم بمشعلى الكهربائى» •

أجابنى فى قحة : « معهم مشاعلهم وليسوا فى حاجة الى معاونتك » •

أنصت لوقع أقدامهم فوق الدرج ، ولصوت الباب الخارجى عندما أغلقه آخر من خرج منهم ، بينما كنت أتأمل الوجه القبيح الذى بقى معى ، وقد هبط على ادراك مفاجىء بأنى وقعت أخيرا فى يده •

لكنى شعرت فى نفس الوقت أن المحنة المقبلة ، التى سيتوقف عليها مصيرى ، ستكون فاصلة فى شأنه هو الآخر •

٤

جلست على حافة الفراش ، وأشعلت سيجارة باصابع مرتعشة وأنا أحاول استيعاب التطورات الأخيرة المتلاحقة · وأردت ، قبل كل شيء ، أن أفهم الوضع الجديد ، فقلت للقصير الذى لم يغادر مكانه خلف مكتبى :

« انى أرحب بك فى مسكنى ، أنت وبقية اعضاء اللجنة الموقرة · لكن ثمة ماأريد أن أستوضحه · وأعنى أن الوصول الى قرار فى هذا الأمر قد يستغرق بعض الوقت » ·

أجاب : « خذ من الوقت ماتشاء · لكن المهم أن تصل ، فى النهاية ، الى قرار » ·

قلت فى رقة بالغة : « ربما تطلب ذلك عدة أيام » ·

قال بحسم : « يجب أن تفهم جيدا انى باق هنا الى أن تحزم أمرك ، ولو بعد عام · والأفضل لك ، بالطبع ، أن تتمكن من ذلك فى أقرب وقت » ·

ران علينا الصمت بضع لحظات ، تمعنت خلالها فى كلماته وما تحملها من مدلولات ، الى أن استأنف الحديث :

« ليس من حقى أن أتدخل فى شأن قرارك ، الا أنى على استعداد لمساعدتك بصفة شخصية » ٠

قلت : « أشكرك على هذه الـــروح ٠ وما دمت تحدثت عن المساعدة ، فماذا تقترح على ؟ » ٠

قال : « لقد عرضنا عليك استبدال شخصية الدكتور بغيرها، لكن اللجنة لن تعارض فى أية بدائل أخرى ٠ فعلك تجد صيغه ملائمة ، تسمح لك بمواصلة العمل فى نفس الموضوع » ٠

لاح لى بصيص من الأمل ، فهتفت :

« ليس عندى مانع ٠ فكيف أفعل اذن ؟ » ٠

أجابنى فى لهجة اشتممت منها شيئـا من التشفى : « هذا شأنك ٠ فكر » ٠

لكنى عجزت عن التفكير رغم ما بذلت من مجهود ٠ واشتد احساسى بجفاف حلقى ، فبلعت ريقى عدة مرات ، وأخيرا عرضت عليه أن نشرب شايا ٠

قال فى شىء من السخرية :

« اذا كان الشاى سيساعدك على التفكير ، فلا مانع لدى » ٠

نهضت واقفا وغادرت الحجرة ، فترك مقعده وتبعنى ٠ أجتزت الردهة وهو ورائى الى أن بلغت المطبخ ٠ ووقف فى مدخله يرقبنى وأنا أملأ الغلاية من الصنبور ، وأضعها فوق موقد الغاز ثم أشعله ٠

ولم أدرك الموقف تماما الا عندما أردت التبول ، فغادرت المطبخ وعدت ادراجى فى الردهة نحو الغرفة الداخلية التى يقع الحمـام

الى جوارها • فما أن دخلت الحمام واستدرت أغلق الباب ، حتى وجدته قد لحق بى ، ودفع الباب جانبا ليحول دون اغلاقه . ثم وقف فى مدخل الحمام ، قريبا منى ، الى أن فرغت من أمرى •

قلت وأنا أتقدم من الحوض وأفتح الصنبور :

« أتظن أنى سأهرب منك ؟ »

أجاب بقحة : « لا شأن لك بما أظنه » •

غسلت يدى ووجهى ثم جففتهما • وعدت الى المطبخ وهو فى أعقابى •

صنعت الشاى وصببته ، ثم ناولته كوبه ، وحملت كوبى ، وتقدمته من تلقاء نفسى ، الى الغرفة الداخلية •

رأيته يتجه الى مكتبى ، فاستوقفته قائلا :

« أريد أن أطلب منك معروفا » •

قال بحذر : ما هو ؟ » •

قلت : « أن تجلس فى هذا المقعد وتترك لى مكانى عند المكتب» •

تأملنى لحظة ثم طاف بعينيه فى أرجـــــاء الغرفة ، الى أن استقرتا على المقعد ذى المسندين ، فتفحصه بامعان ، كأنما يبحث عن سر خفى لطلبى ، أو خازوق ما ، وأخيرا هز كتفيه وقال :

« لا بأس » •

احتللت مكانى المفضل عند المكتب ، فأصبح الجدار ـ وهو الجدار الاخير للمسكن كله ـ من خلفى ، والباب من أمامى • ولم أكن أشعر ـ عادة ـ بالطمأنينة ، الا فى هذا الوضع •

ولما كان المقعد ذو المسندين بجوار الباب ، بينه وبين الفراش، فقد صار القصير فى مواجهتى مباشرة · وهو ما جعلنى أندم فى الحال على السعي وراء طمأنينة واهمة ·

قدمت اليه سيجارة فقال أنه لا يدخن حفاظا على صحته · وأسرعت باشعال سيجارتي ، وقد خفت أن يفرض على مراعاة موقفه من التدخين · لكنه انشغل عنى بتأمل لوحة المرأة العارية المعلقـــة فوق رأسى ·

قلت معقبا على اهتمامه : « انها لمحمود سعيد ، كما لعلك حزرت · ولا يقتصر جمالها على روعة الألوان واحكام التكوين · فلعلك لاحظت الغموض الذى يتجلـــى فى نظرة العينين ووضع اليدين · وفى رأيى أنها تحمل قدرا منه يماثل ذلك الذى تحمله لوحة الموناليزا الشهيرة » ·

ظهرت على وجهه لاول مرة ابتسامة ملتوية · وفوجئت به يغمز لى باحدى عينيه قائلا :

« هل لديك صور أخرى من هذا النوع ؟ » ·

أجبت : « فهمت ما تقصده · للأسف أنى لست من المغرمين بالصور العارية ، وانما أفضل الكتب الاباحية · ولدى مجموعة من هذه الكتب اذا أحببت أن تلقى عليها نظرة · » ·

قال : « فيما بعد · فأمامنا وقت كاف ، فيما يبدو · الا أنى لا أفهم وجه اعتراضك على الصور العارية · » ·

قلت : « لأنها لا تقدم الا لحظة ثابتة ، لا تكشف عن أية أعماق · أما الكتاب فيلقى شيئا من الضوء على السلوك الانسانى · فمهما بلغ الكاتب من تبذل وسوقية واغراق فى الخيال ، فانه مضطر لأن ينهل من تجاربه الواقعية ، وهو سيكشف ، شاء ام لم يشأ ، عن

جانب من اللاوعى الانســانى بحكــم كشفه عن لا وعيه هو ٠ والنتيجة فى النهاية يمكن أن تكون مصدر معرفة ، بقدر ما هى ، بالتأكيد ، مبعث متعة » ٠

لم تبد عليه الرغبة فى متابعة الجدل ، اذ تشاغل بارتشاف الشاى فى صوت مزعج ، وهو ينقل البصر بين الكتب والاسطوانات الموسيقية التى ملأت عدة رفوف معلقة خلفى ٠ ووجدت فى ذلك فرصة لمحاولة ترتيب الافكار التى كانت تصطخب فى رأسى ٠

هالنى أن أبدأ البحث من جديد ، بفرض أنى وجدت الشخصية التى يمكن أن تحل محل « الدكتور » ، أى تتوفر فيها الخصــائص التى جعلت منه ألمع شخصية عربية معاصرة ، وتستحوذ فى الوقت نفسه على جل اهتمامى ، وشغفى ٠

وما أدرانى أنهم ، بفرض انى عثرت على شخصية اخرى ، لن يزورونى بعد عدة أشهر ليطلبوا منى استبدالها من جديد ؟

عجبت لتمسكى بالدكتور ، كأنما سحرتنى شخصيته ، أو صار وجودى مرتبطا بوجوده ٠ واذ أوليت الأمر الآن كل تفكيرى ، رأيت أننى ، من خلال الظواهر الغامضة التى صادفتنى أثناء البحث فى أمره ، والمعلومات الغريبة التى جمعتها وسهلت لى ادراك أشياء كثيرة ، أعيانى فهمها من قبل ، قد وجدت أخيرا معنى للحياة ، لست مستعدا لأن أفقده ، كى لا أعود الى ذلك الخواء المؤلم الذى كنت أعيش فيه ٠ وهل يتخلى الغريق عن قطعة الخشب التى يمكن أن تؤدى به الى النجاة ؟

لم يعد أمامى اذن سوى أن أقصر تفكيرى على السبيل الذى ألمح اليه ضيفي منذ قليل ٠

على أنه كان ثمة مغزى لاقتراحه ، وللتطورات الاخيرة برمتها لم يفوتنى ادراكه ٠ فحرية الحركة والمناورة التى أتيحت لى حتى الآن ، ومكنتنى من الافلات من الشباك المنصوبة ، قد تقلصت للغاية حتى أوشكت أن تنعدم تماما ٠

وضايقتنى هذه الفكرة للغاية حتى انى عجزت عن مواصلة التفكير ٠ فقررت أن أوجل الأمر كله الى الصباح ، اذ مازالت عادتى أن ألتمس فى النوم مهربا ٠

قلت للقصير بعد قليل : « الوقت تأخر ، ولعلك تود أن تأكل شيئا ٠ » ٠

قال : « كلا ، فقد تناولت عشائى قبل مجيئى ٠ يمكن أن تأكل أنت اذا شئت » ٠

قلت : « صدت نفسى ، فقد استولى على التعب ، وأريد الآن أن أنام ٠ فأين تود أن أعد لك فراشك ؟ » ٠

سألنى بدوره وهو يشير الى الفراش : « أليس هذا سريرك؟»

اجبت : « أجل ٠ بوسعى أن أعد لك فرشا آخر فى الصالة ٠ أو تنام انت هنا ، وأنام أنا فى الصالة » ٠

قال فى حسم : « لا هذا ولا ذاك ٠ سأنام بجوارك على هذا السرير » ٠

انزعجت للغاية من قوله ، فلم أكن قد نسيت بعد ماجرى لى فى المقابلة الأولى مع اللجنة ٠ وتأملته فوجدته قويا مدكوكا رغم كهولته ، لا قبل لى بمقاومته ، او الاشتباك معه ٠

واكتشفت أنه أحضر معه حقيبة سامسونايت ، فتحها الآن وأخرج منها حافظة جلدية لادوات الزينة ومنشفة وخفا من القماش· وحرص أثناء ذلك على ألا يمكننى من رؤية محتويات الحقيبة الى أن أغلقها · وانتظر حتى رآنى أتقدم الى الحمام ، فألقى بمنشفته على كتفه وتبعنى ·

باشرت بغسل أسنانى ، بينما أخرج هو من حافظته الجلدية، فرشاة للأسنان ومعجونا أجنبيا وصابونة فرنسية معطرة · وانتهيت من الاغتسال بسرعة ، فتركت له الحوض ، وانتهزت الفرصة لأتبول واملأ الاوانى البلاستيكية من صنبور حوض الاستحمام · فلأن المياه لا تصل الى الطابقين الأخيرين الا ليلا ، يتعين على أن أجمع منها ، كل ليلة ، مايكفى للنهار التالى ·

وقد شرحت هذا كله للقصير عندما سألنى عن حكمة ماأفعل· وأبقيته واقفا فى مدخل الحمام ريثما ملأت عدة أوعية · فلاحظ أن مياه الحنفية لا يلبث لونها ، فى الوعاء ، أن يتحول الى صفرة داكنة، ثم يميل الى السواد · وكان هذا أمرا عاديا فى نظرى ، الا أنه أعرب عن دهشته قائلا أنه لم يسبق له أن رأى مياه الحنفية بهذا اللون ·

قلت : « لا بد أنك تستخدم جهازا للتقطير ؟ » ·

قال مستغربا : « أجل · كيف عرفت ؟ » ·

ابتسمت وأنا أغلق الحنفية بعد امتلاء الوعاء الاخير ، ثم أجبته :

لقد عرفت أشياء كثيرة فى الآونة الأخيرة » ·

مضيت الى المطبخ ، وهو خلفى ، فملأت عدة زجاجات وأواني بالمياه من أجل الشرب والطهى • وأحكمت اغلاق صنبور أنبوبة الغاز • وأوشكت أن أقوم بجولتى المعهودة قبل النوم ، التى أغلق فيها النوافذ ، وأحكام رتاج الباب الخارجى ، لكنى تداركت نفسى عندما تبينت أنه ليس ثمة ماأخشاه ـ هذه الليلة على الأقل ـ من الخارج •

عدنا أخيرا الى الغرفة الداخلية ، فأخرج من حقيبته منامة حريرية مزركشة • واقترحت عليه أن يستبدل ملابسه فى الحمام ، أو أغادر الغرفة حتى يفعل • ومن الطبيعى أنه ماكان ليوافق • أما فلم أعبأ بالامر ، لأنى لا أجد غضاضة فى أن أتعرى أمام رجل مثلى ، فما بالك اذا كان هذا الرجل على معرفة سابقة بأكثر أجزاء جسمى حميمية ؟

لكنى لم أكد أخلع ملابسى الخارجية وأقف أمامه بالقميص والسروال الداخليين ، حتى شعرت بالحرج عندما تطلع الى • ولم أملك أن اختلست النظر الى فخديه العاريين ، فهالني امتلاءمابينهما ، وقدرت أنه اما أن يكون مصابا بفتق قديم ، تدلت معه امعاؤه فى الخصية ، أو أنه قد حوبى ، عند خلقـــه ، بشىء من السخاء غير المألوف •

أردت أن أثير موضوع الرقاد من جديد ، فقلت فى انفعال مفاجىء :

« ربما تحب أن تقرأ قبل النوم • وفى هذه الحالة لا بد أن ينام كل منا فى حجرة ، لأن النور يزعجنى ، وأريد أن أنام على الفور » •

قال بهدوء : « لاتقلق · لن أقرأ شيئا ، فأنا أيضا أريد أن أنام الآن » ·

تقدمت من الفراش بخطى متثاقلة · وسمعته يطلب منى بنفس الصوت الهادىء ، أن أسبقه داخل الفراش ، كى يرقد هو على طرفه الخارجى · فانصعت لرغبته ، واستلقيت على ظهرى الى جوار الحائط · وما لبث أن انضم الى بعد أن أطفأ النور ·

وغنى عن القول أن النوم لم يجد الى جفونى سبيلا · فرغم حاجتى الشديدة اليه فى نهاية يوم مرهق ، وأساسا كى أنهض منتعشا فى الصباح ، قادرا على تدبر المعضلة التى تواجهنى ، فان جهلى بمدى مايمكن أن يذهب اليه جـــارى فى الفراش ، نبه كل حواسى ، وبالأخص اذنى ·

وفى البداية ، غطى وقع الدقات السريعة لقلبى على أصوات الليل المعهودة · وعندما هدأت قليلا ، تبينت حشرجة المواسير ، وصياح جارى فى أطفاله ، وصرير اناء معدنى يوضع تحت الحنفية فى المسكن الذى تحتى ، ونباح الكلاب فى شوارع الحى ·

والغريب أن هذه الأصوات التى طالما أثارت حنقى ، وحرمتنى من النوم ، غدت الليلة مصدر طمأنينة ، وخففت من توتر أعصابى

الا أنى لم ألبث أن انتفضت عندما دوت طلقات الرّصاص فى سكون الليل معلنة بدء الحملة على الكلاب ·

وكنت أعرف أغلب هذه الكلاب · وأرى أجسادهـا الهزيلة بالنهار ، فى شوارع الحى وعند أكوام الزبالة · كانت جبانة ، لا تملك القوة على ايذاء أحد ، وكل ما تملكه هو عقيرتهــا التى ترفعها بدون مناسبة ، وخاصة بعد أن يهجع الناس ·

ويبدو أن هذا النباح الذى تتضخم أبعاده فى هدأة الليل ، قد آذى مسامع احد الشخصيات اللامعة من سكان الحى ، فاستأجر من يتصيدها • وأصبح النباح يختلط فى أغلب الليالى بطلقات الرصاص ، ثم يتباعد تدريجيا الى أن يتلاشى •

وفى اليوم التالى ، أو الذى بعده ، يعود النباح الى سابق عهده ، كأن شيئا لم يكن ، فتدوى طلقات الرصاص من جديد •

لم يأبه جارى لطلقات الرصاص ، وظل راقدا على ظهره فى سكون وحبست أنفاسى عندما تحرك فجأة ، وانقلب على جانبه الايسر ، بحيث صار وجهه ناحيتى •

أتتنى رائحته المعطرة فملأتنى بالتقزز • وخيل الى من انتظام تنفسه بعد قليل أنه استغرق فى النوم • فاستدرت على جانبى الايمن بحيث واجهته • وتطلعت الى وجهه فى الظلام •

كانت عيناى قد ألفتا غياب الضوء ، فأمكننى أن أتبين موقع عينيه ، وفوجئت بهما مفتوحتان ، ترمقانى فى انتباه •

أغلقت عينى على الفور وتظاهرت بالنوم وأنا أراقبه من تحت أجفان نصف مغلقة •

بدرت حركة من يده ، فحبست أنفاسى فى هلع وقد تبادر الى ذهنى أنه سيلمسنى • لكنه لم يفعل ، وترددت انفاسه فى انتظام • وخيل الى أنه أغلق عينيه ، لكنى لم أستسلم للاوهام ، فربما كان يفعل مثلى ويرقبنى من بين جفونه •

تعذر على النوم ، خاصة بعد أن فرضت مشكلتى نفسها على فكرى • وعندما حاولت الهرب منها بالتفكير فى شىء غيرها ،

فتحت بابا طالما جاهدت فى اغلاقه · وكأنما كانت الصـــــور والذكريات تنتظر خارجه ، فسرعان ما تدافعت داخل رأسى · ولم تلبث أن تراءت لى بجلاء نقاط ضعفى وسوءاتى · وتضخم احساسى بتفاهة شأنى ، وباللحظات التى سمحت لنفسى فيها أن أكون أضحوكة للآخرين ، والعوبة فى أيديهم ، وبالطرقات الجانبية التى لم أمنع نفســـى من الانقياد اليها ، وبالمتع الصغيرة التى استسلمت لها ، وتركتها تتحكم فى ·

وما عتمت هذه الأمور ذاتها أن بدت محل شك ، اذ جرفتنى موجة مألوفة منه ، ألقت ظلالها على مناحى حياتى وأهدافها · ولم تسلم من ذلك المتع الجنسية التى تحتل مكانا بارزا من وجدانى · فعندما استدعيت ــ فى محاولة مستميتة للخلاص ــ ما يخزنه عقلى من صور واقعية ورؤى خالية ، طالما بعثت الدماء فى عروقى ، ألفيتنى غير مبال ، عازفا عن كل وعد بالبهجة ·

ويبدو أنى غفـوت قليـلا قرب الفجر ، وأنى تقلبت بحيث أعطيته ظهرى ، فقد تنبهت فجأة على ارتطام شىء صلب بفخذى ·

اعتدلت فوق ظهرى على الفور وتطلعت نحوه ، فرأيته فى ضوء الفجر الخفيف يرمقنى بعينين يقظتين · لكنه كان بعيدا عنى بمسافة كافية ، مما دفعنى الى الظن بأنى كنت أحلم · وهو ما يعطيكم صورة عن الهواجس التى كانت تعتمل فى داخلى ·

ومن الطبيعى أنى لم أتمكن من النـــوم بعد ذلك · وعندما تسللت أشعة الشمس الى الحجرة قررت القيام · وسبقنى هو فغادرنا الفراش سويا · ومضينا الى الحمام ، فتبولنا واغتسلنا ·

ورأيته يستخرج أدوات الحلاقة من حافظته الجلدية ، فقررت أن أحلق بدورى ، سعيا وراء شىء من الانتعاش ، ولأشغل نفسى حتى ينتهى ، فقد كنت واثقا أنه لن يدعنى أغادر الحمام قبل ذلك ·

وقفنا متجاورين أمام المرآة المعلقة فوق الحوض · ورفعت اليها عينين حمراوين دامعتين ، فالتقتا باثنتين تفيضان حيوية ونشاطا ، كأنما نعمتا بالنوم طوال الليل · وطالعتنى فيهما نظرة ثابتة حرت فى تفسيرها ، بسبب حولهما فى الغالب ، فاضطربت آلة الحلاقة فى يدى مما تمخض عن جرح خفيف أسفل ذقنى ·

وكان ذلك قمينا بأن يرسل القشعريرة فى جسدى ، لأنى لم أكن أحتمل مشهد الدماء أو فكرة الألم · لكنى رأيتنى أتأمل جرحى ، وخيط الدماء الذى انسال منه ، بمشاعر أقرب ما تكون الى الفضول ·

نبهنى رفيقى من استغراقى فى تأمل دمائى ، بأن قدم الى من حافظته الجلدية ، زجاجة صغيرة للمياه العطرية ، كى أعالج بها الجرح · لكنى اعتذرت شاكرا ، ووضعت رأسى كله تحت الصنبور وتركت المياه القليلة التى سالت منه تغسل الجرح وتكتمه ·

عدنا الى الغرفة بعد أن جففت رأسى ، وألصقت قطعة صغيرة من القطن بمكان الجرح ، فاستبدلنا ملابسنا ، وبينما اكتفيت بقميص وبنطلون ، ارتدى هو ملابسه الكاملة ولم ينس أن يعقد رباط عنقه ·

انتقلنا الى المطبخ ، فصنعت الشاى · ولم أجد فى الثلاجة سوى ثلاث بيضات ، وضعتها على النار فى قليل من المياه ، بعد أن استطلعت رغبة ضيفى فى هذا الشأن · وأخرجت أيضا قطعة

من الجبن ، وأخرى من الحلاوة الطحينية ، وقدرا من الزيتون الأسود ·

جلسنا أخيرا ، متواجهين ، الى مائدة الطعام ، بعد أن قدمت اليه بيضتين من الثلاث المسلوقة ، وخصصت نفسى بالثالثة ، ولم يعلق بشىء على هذا التوزيع غير المتكافىء ، وانما أقبل على الطعام فى شهية بالغة ، بينما أكلت فى غير حماس ·

فرغنا من الأكل سريعا ، فصببت الشاى ، والتقطت الصحف التى ألقى بها البائع ـ كالعادة أسـفل باب المسـكن ، فأعطيته واحدة ، واحتفظت بأخرى ·

وكنت قد درجت فى الفترة الأخيرة على الجمع بين أربع عمليات فى آن واحد ، وهى تناول الشاى ، وتدخين أول سيجارة ، وقراءة صحف اليوم ، وقضاء الحاجة · وقد تكونت هذه العادة عندما بدأت بحثى عن « الدكتور » ، اذ كنت مضطرا الى اختصار الفترة بين نهوضى من النوم ، ومغادرتى المنزل ، لأقضى أكبر وقت ممكن فى دور الصحف والمجلات التى كنت أتردد على مكتباتها · الا أن جذور هذه العادة ، ترجع الى شعور داخلى بالمكان الملائم لقراءة صحفنا القومية · وككل عادة ، أصبحت تحتل ركنا هاما من حياتى النفسية اليومية ، بحيث أن التخلى عنها ، أو عن جانب منها ، يهدد اليوم كله ، على الفور ، بالتلف ·

ولم أجد ما يمنعنى من الجرى على عادتى فى هذا اليوم ، خاصة وأنى كنت فى أشد الحاجة الى كل ذرة من قواى الروحية ، بالاضافة الى ما يتيحه لى ذلك من الانفراد بنفسى بعض الوقت ،

فوضعت علبتى السجاير والثقاب فى جيبى ، والصحيفة تحت ابطى وحملت كوب الشاى فى يدى ، ومضيت الى الحمام ٠

توقعت أن يتبعنى كالعادة ، وهذا ما فعله ، فاسندت كوب الشاى الى حافة الحوض ، وواجهته موضحا ما أنتويه ، وما يترتب عليه من ضرورة اغلاق الباب ٠

تطلع الى مستهزئا : « هل نسيت أنى رأيت مؤخرتك العارية فى وضع أقل وقارا من قضاء الحاجة ؟ »

قلت : « لم أنس ٠ لكن العادة جرت أن ينفرد الانسان بنفسه فى هذه الأمور ٠ فهذه لحظة خاصة جدا » ٠

قال بشراسة : « ان من يتصدى للامور العامة يفقد حقه فى كل خصوصية » ٠

أيقنت بعبث المحاولة ، فانزلت بنطولنى ، واستويت فوق الحلقة البلاستيكية لمقعد الحمام ٠ ووقف هو فى فرجة الباب يتأملنى ٠

تناولت كوب الشاى وأخذت منه رشفتين ، ثم وضعته على الأرض بجوار قدمى ، وأخرجت سيجارة فأشعلتها ٠ ثم بسـطت الصحيفة وبدأت بالعناوين الرئيسية ٠

لكن الانسجام الصباحى المألوف لم يتحقق ٠ فلم أجد مذاقا للشاى أو السيجارة ، ولم أتمكن من التركيز فى القراءة ، والأهم من ذلك كله أن أمعائى لم تتحرك ٠

وما أن يئست من جدوى الاستمرار فى مكانى ، حتى نهضت واقفا وأنا أجذب سروالى الى أعلى بسرعة ، وخطوت نحو الغرفة شاعرا بضيق واحباط شديدين · وجلست الى مكتبى ، بينما احتل هو المقعد ذى المسندين ·

أشـــعلت ســـيجارة جديدة ، ومددت يدى الى البطاقات المصفوفة فى صندوق الأحذية ، وجعلت أقلب بينها وأنا أشـــعر بعينى القصير على وجهى ·

كان على أن أجد وسيلة لمواصلة البحث الذى بدأته ، ترضى عنها اللجنة وتباركها · فهل يتحقق ذلك باستبعاد جوانب معينة من سيرة الدكتور ؟ أم بالاقتصار على ناحية بعينها من نواحى شخصيته الغنية ؟ وأى ناحية منها ؟ أم أن الأمر يتطلب التخلى تماما عن المنهاج المبتكر الذى عرضته للجنة ، والأخذ بالمنهج التقليدى الذى يتتبع مراحل الحياة ؟

وكلما أمعنت التفكير ، اســتولى على القنوط · فالمنهج التقليدى حافل باخطار بالغة ، اشرت اليها فى حينها · وتجلى لى من ناحية أخرى ، الترابط بين جوانب كل من سيرته وشخصيته بحيث يصعب تناول أحدها بمعزل عن الأخرى ·

فكيف يمكن الحديث عن ثرائه دون الاشارة الى مصدره · وعندئذ لن يكون بوسعى تجاهل الحقائق المتعلقة بهذا الشأن ، والا أكون قد أخللت بالمبدأ الأساسى الذى بلوره بلزاك فى عبارته الشهيرة « خلف كل ثروة كبيرة ، جريمة كبيرة » ، وأصبح من بعده ديدنا لكافة الباحثين المعاصرين ·

ولا يمكننى بالمثل أن أتجاهل ضعة أصله ، أو دوره الوطنى وعلاقته بالثورة ، أو دعوته للوحدة العربية والاشتراكية ، ونشاطه

الاقتصادى المتشعب ، أو عمالته للشركات الأجنبية ، والجوائز الدولية التى فاز بها فى هذا المضمار ، ولا طمعه فى أموال بترول الخليج ، التى تذهب الى أصحابها الحقيقيين فى أوروبا والولايات المتحدة عن طريق وسطاء غيره · فماذا يتبقى منه لو فعلت ؟

خاطبنى القصير بغتة فى لهجة ودية ، ظاهرها عدم المبالاة :

« بالمناسبة · لقد سمعتك أمس تتحدث عن اكتشافات هامة توصلت اليها من خلال دراستك عن الدكتور · وان لم تخنى ذاكرتى فانك قلت انك قادر على اماطة اللثام عن ألغاز كثيرة · فماذا كنت تعنى ؟ »

شعرت بالخطر ، فحاولت التهرب من الاجابة ·

قلت مهونا : « الواقع أنى لم أتوصل بعد الى شىء · وما أردت أن أقوله ، ولعل التعبير خاننى ، هو أنى مقبل على فهم العلاقة بين عديد من الظواهر المتفرقة » ·

قال : « مثل ؟ »

فكرت قليلا ثم قلت : « الظواهر كثيرة ، لا حصر لها ، بحيث يصعب انتقاء احداها · خذ مثلا انتشار امراض الاكتئاب النفسى والعنة الجنسية وفتور الهمة · أو التعصب الدينى · أو انقراض السيجارة المصرية · أو عودة الكوكاكولا · أينما تطلعت ستجد ما تشاء من ظواهر » ·

وابتسمت ثم أضفت : « ان الدكتور نفسه يمدنا بواحدة من أكثر الظواهر اثارة وغموضا ، وأعنى بذلك وجود كثيرين على شاكلته فى كافة البلاد العربية ، رغم اختلاف الانظمة والشعارات والحكام » ·

تجاهل اشارتى الى الدكتور وهز رأسه فى ازدراء :

« واين هى العلاقة المزعومة بين هذه الظواهر ؟ »

أجبت بمكر : « لم أقل أنى تبينتها · فأنا مازلت فى بداية البحث » ·

قال وهو يضغط على مخارج الحروف :

« أرى أنك تجرى وراء سراب ، وتتصور أمورا لا وجود لها · فكيف يؤدى بحث عادى كالذى تتولاه الى كل هذه الأمور ؟ »

خبطت بيدى على سطح المكتب وقلت :

« هذا ما أردده لنفسى طول الوقت ، بلا فائدة ·· ما رأيك فى فنجان من القهوة ؟ » ·

بوغت بتغيير مجرى الحديث ، لكنه لم يلبث أن قال :

« لا مانع » ·

ثم تطلع الى ساعته واستدرك :

« الأفضل ألا أشرب · فقد قاربنا موعد الغداء » ·

نهضت واقفا وأنا أقول فى حماس :

« للأسف فانى لم أكن أتوقع هذه الزيارة ، ولهذا لم آخذ أهبتى لها · صحيح ان لدى قدرا كافيا من الأرز ؟ كما أن الثلاجة ـ فيما أظن ـ تحوى نصف دجاجة على الاقل ، الا انه من الضرورى ـ بالطبع ـ اعداد أصناف أخرى · حساء مثلا ، وصنف من اللحم أو السمك ، وآخر من الخضروات ، فضلا عن الفواكه والحلوى · هكذا ترى أنه من الضـــرورى أن أذهب ـ أقصد تذهب ـ الى الســـوق » ·

قال وهو يتقدمنى نحو المطبخ : « لا ضرورة لذلك • سنكتفى بما لديك » •

أتيت بحركة من كتفى ، كأنما أخلى نفسى من المسئولية ، وأخرجت نصف الدجاجة من الثلاجة فوضعتها فى قليل من المياه ليزول تجمدها • وأشعلت الموقد أسفل قدر آخر من المياه • ثم نظفت الأرز من الشوائب وأضفت اليه المياه الساخنة بعد أن أخذت منها ما يكفى لاعداد فنجان واحد من القهوة ، كنت فى أمس الحاجة اليه •

غسلت الأرز جيدا فى المياه الساخنة ، ثم نقلته الى وعاء آخر ، وأضفت اليه السمن والملح والماء ووضعته فوق النار • وعدت الى الثلاجة فأخذت منها بضع حبات من الطماطم والخيار والقلفل الأخضر • وجذبت درج أدوات المطبخ ، الذى يقع أسفل الموقد ، بحثا عن سكين نظيفة ، فلم أجد به غير سكين اللحم الكبيرة ، ذات الشـــفرة الماضية • أعدت الدرج مكانه وتناولت رشفتين من القهوة • وكان رفيقى قد وقف فى مدخل المطبخ ، موزعا اهتمـــامه بين مراقبتى ، وتأمل عناوين الكتب التى تبدأ صفوفها من أمام المطبخ وتمتد حتى الحمام ، فطلبت منه أن يصب لى الماء كى أغسل سكينا صغيرة •

قال وهو يفعل ، مومئا الى أقرب كوم من الكتب :

« أنت اذن من عشاق الروايات البوليسية ؟ »

قلت : « فعلا » •

قال : « لكنى لا أرى لديك رواية واحدة من روايات آجاثا كريستى » •

قلت وأنا أجفف السكين ، وأشرع فى تقطيع الخضر :

« الواقع أنى لا أميل الا الى صـــنف معين من الروايات البوليسية ، وهى تلك التى تقوم على الحركة والفعل · وأكثرها قربا الى ، هى التى يقوم فيها البطل بمطاردة المجرمين ورجال العصابات ، متحملا فى ذلك كل عنت ، وفى أغلب الاحيان ، دفاعا عن أحد الضـــعفاء والعاجزين ، وفى مواجهـــة المجتمع وطبقاته الســـائدة » ·

قال ساخرا : « عندك ميول انسانية » ·

قلت وأنا ارتشف من القهوة : « أبدا · ان موقفى – فى رأى البعض – يعتبر ارتدادا الى فترة المراهقة · وفى رأى البعض الآخر مجرد دليل على استمرار الطفل فى كل انسان · لكنى أعتقد أن الأمر أكبر من ذلك · ان الاقبال على قراءة هذا النوع من الروايات يعكس العجز عن فعل ما هو صائب ، ويتفق مع الرغبة الطبيعية المشروعة لدى كل انسان فى أن ينال الشرير عقابه وأن ينتصر الحق » ·

واستطردت بعد لحظة : « ثم أن هذه الروايات لا تتطلب مجهودا ذهنيا من القارىء ، لأنها تقوم على الحركة · وليس معنى هذا أن روايات آجاثا كريستى تتميز بمستوى فكرى عال · فهى تقوم على الغاز ساذجة من نسج الخيال ، لا يجدر بالمرء أن يبدد طاقاته العقلية فى متابعتها ، بينما يحفل الواقع ذاته بألغاز حقيقية يحتاج الاهتمام بها الى كل ملكات الانسان » ·

قال بلهجة استفزازية : « عدنا الى حديث الالغاز الغامضة والظواهر الغريبة · لقد بدأت أشك فى سلامة قواك العقلية » ·

أدركت أنه يجذبني من قدمي ، لكني لم أملك نفسي من الانفعال ، فلوحت بالسكين في اتجاه الصنبور وأنا أقول :

« أنت تسخر مني · لكن ما قولك في المياه السوداء التي تخرج من هذا الصنبور · أليست لغزا حقيقا ؟ »

قال بهدوء : « وماذا أيضا ؟ »

اندفعت في تهور : « الالغاز كثيرة ان شئت · خذ مثلا موقف الدكتور من مشكلة الحرب والسلم · ففي بعض الأحاديث الصحفية القليلة التي أجريت معه ، وصف الحرب بأنها السبيل الوحيد لاستعادة الحقوق المغتصبة ، بينما أكد في أحاديث أخرى ، أن السلام هو السبيل الوحيد لذلك » ·

قاطعني متسائلا : « وما التناقض بين الأمرين ؟ » ·

قلت : « التناقض هو أنه في الحالة الأولى ـ عندما يتحدث عن الحرب ـ تجده يعمل بنشاط في مشروعات تحتاج ، أول ما تحتاج ، الى السلام · وفي الحالة الثانية ـ عندما يتحدث عن السلام ـ تجده منهمكا في تأليف جيش من المرتزقة يقدمه لمن يدفع الثمن » ·

توقفت لاطمئن على الأرز ، وأخفض النار من تحته ، ثم غسلت نصف الدجاجة ، وأعدت المقلاة لها ·

استطردت : « اليك لغزا ثالثا اذا لم يكفك ما ذكرت · ان التعليمات المرفقة بالأدوية الأجنبية المباعة في بلادنا ، توصي باستخدام جرعات أكبر من تلك التي توصى بها المرضى في بلادها الأصلية · فلماذا ؟ »

وضعت ملعقتين من السمن فى المقلاة ، والقيت بنصف الدجاجة فيها بعد أن ابتعدت قليلا الى الوراء ، كى لا يصيبنى الطشاش الساخن ٠

قلت ومازلت فى أوج حماسى : « بماذا تفسر أن الخريطة المعلقة فى الكنيست الاسرائيلى تقف بحدود اسرائيل المقترحة عند شاطىء النيل الشرقى ، بينما يعلم الاسرائيليون أن أجدادهم هم الذين بنوا الاهرامات ، الواقعة على الشاطىء الغربى للنيل ؟ »

لم يعبأ بمجادلتى ، وكان مهتما أكثر بأن يستمع الى ، كأنما يتركنى أمد الحبل الذى سأشنق به نفسى ٠ وقد تنبهت فجأة الى ذلك عندما تراءى شىء من الاستمتاع فى احدى عينيه ، فلجأت الى تغيير موضوع الحديث ، منتهزا فرصة وضع الطعام على المائدة ٠

قلت وأنا أجلس فى مواجهته :

« لعلك لاحظت وجود مجموعة من روايات الكاتب البلجيكى جورج سيمنون لدى٠ والواقع أنى مغرم به وببطله المفتش ميجريه٠ ورغم أن رواياته لا تقوم على الحركة ، وهى أقرب الى روايات الالغاز ، الا أنها تتفوق على آجاثا كريستى ، بما تتميز به من عمق سيكولوجى وبعد اجتماعى ٠ وهى تثبت أن كثيرا من النزعات المناقضة لسلوك المرء العادى ، تختزن فى العقل الباطن ، وفى لحظة معينة من تراكم هذه المخزونات ، يحدث شىء مثل القشة التى قصمت ظهر البعير ، فيصدر عن المرء فعل مناقض تماما لكل ما قام به من قبل ٠ ويصبح الانسان المسالم الذى لم يرتكب فى حياته عملا واحدا من أعمال العنف ، قادرا على ارتكاب أبشع جرائم القتل العمد » ٠

لم يعلق بشىء ، وانهمك بكليته فى الأكل بشهيته المعهودة ٠

وجعلت أرقبه فى صمت وهو يمسك فخذ الدجاجة بقبضة قــوية ، ويرفعه الى فمه بيد ثابته ، ثم ينهش لحمه فى استمتاع ، ويلوكه بين أسنانه قبل أن يطحنه فى تأن واحكام ، مركزا فى الأمرجل اهتمامه.

وخطر لى أن ما أفتقده فى حياتى ، هو بالضبط هذه الطريقة فى الأكل ، النابعة من اقبال على الحياة ، وعدم التردد فى مواجهة اخطارها ، والاصرار على قهرها .

فرغنا من الطعام ، فرفعت الصحاف ، وألقيت بها فى حوض المطبخ . ثم مضينا الى الحمام ، فاغتسلنا . ولجأنا بعد ذلك الى الحجرة الداخلية ، فاستقر كل منا فى مكانه .

أشعلت سيجارة ، وما أن أخذت منها نفسين ، حتى استولى على الخمول المألوف الذى أشعر به عادة بعد الأكل . وأحسست أن الاجهاد قد بلغ بى مداه ، وأنى فى حاجة ملحـــة الى اغفاءة قصيرة .

قلت له : « ألا ترغب فى شيء من الراحة ؟ أنا أنام عادة بعض الوقت عقب الغداء » .

أجابنى فى بطء : « ليس من عادتى أن أنام أثناء النهــار . أما أنت فلا أظن انك تملك أضاعة الوقت فى النوم » .

أدركت ما يعنيه فوجهت اهتمامى الى صندوق البطاقات . وأخذت أقلب بينها ، دون أن تعى عيناى الملتهبتان شيئا مما سطر فوقها .

أما هو فقد استرخى فى مقعده باطمئنان ، وثبت عينيه على السقف ، فى نقطة فوق رأسى ، ثم استغرق فى أفكاره تماما ، فبدا كأنما استحال تمثالا .

شعرت بثقل رأسي ، فأملته قليلا الى الامام ، وكان الاغراء لا يقاوم ، فاغمضت عينى ، واذا به يخاطبنى فجأةفى لهجة ملحة :

« هل لك أن ترافقنى الى الخارج لحظة ؟ »

رأيته قد نهض واقفا فى توتر ، فغادرت مقعدى مدهوشا ، وقد تسارعت دقات قلبى ، وتبعته الى الخارج ، فولج الحمام قائلا :

« أرجو ألا تتحرك من هنا حتى انتهى » ٠

ترك الباب مفتوحا ، بحيث أظل فى مجال بصره ، واستقر على الحلقة البلاستيكية بعد أن جذب سرواله الى أسفل ٠ وأعطيته ظهرى ، ووقفت أتمل الكتب المصفوفة فى الممر ، وكنت قد اشتريت أغلبها أثناء التحضير لمقابلتى الاولى مع اللجنة ، ورتبتها حسب موضوعاتها ، فخصصت جانبا للدراسات الاقتصادية والسياسية ، تضمن بعض الابحاث النادرة عن المصالح الأجنبية فى الوطن العربى ودراسة متميزة عن العسكرية فى بلدان العالم الثالث ٠ وقد احتوت الدراسة الأخيرة على فصل شيق عن جذور السادية الواضحة فى سلوك قادة هذا العالم ، يمكن أن يلقى ضوءا على تعطش الزعماء العرب للدماء ٠

وأفردت ركنا لأهم الأعمال الأدبية الجادة على مر الزمن ، ضم كثيرا من الاسماء ، ابتداء من شكسبير وبوشكين وسيرفانتيس حتى جارسيا ماركيز ونجيب محفوظ ٠

وفى مكان بارز ، جمعت كل ما يتعلق بسير بعض الشخصيات العالمية ، التى وضعت بافكارها وممارساتها وتضحياتها ، المثل العامة للمسعى الانسانى ، مثل النبى محمد ، وأبى ذر الغفارى ،

وأبى سعيد الجنابى ، وابن رشد ، والمعرى ، وكارل ماركس ، وفرويد ، ولينين ، وجمال الدين الافغانى ، وطه حسين ، ومدام كورى ، والبرت شفايتزر ، وفوتشيك ، وهو شى منه ، وكاسترو ، وجيفارا ، ولومومبا ، وبن بركة ، وبن بللا ، وفرج الله الحلو ، وشهدى عطية ، وجمال عبد الناصر ·

استغرقت فى تأمل هذه الأسماء حتى تنبهت على صوت معدنى حاد ، فالتفت خلفى برغمى لأراه واقفا فى وضع غريب ، اذ تجمع بنطلونه عند قدميه ، وتعرى سائر جسده ، بينمـــا انحنى يلتقط مسدسا ضخما أسود اللون استقر على الأرض ·

رفع المسدس فى حركة سريعة وأودعه بين فخذيه ، ثم جذب بنطلونه الى أعلى وهو يختلس نظرة فى اتجاهى · لكنى حولت وجهى عنه فى اللحظة المناسبة ·

أدركت ــ وقلبى يخفق بشدة ــ سر الانبعاج الذى لاحظته من قبل بين فخذيه · ومعنى هذا أنى لم أكن أحلم عندما تخيلت فى الفجر اصطدام جسم صلب بفخذى · وأوشكت أن أبتسم عنـــدما رأيت أنى ، من خوفى ، قد عكست الآية الفرويدية المعروفة ، التى يعد فيها المسدس رمزا لعضو الذكورة ·

وما ان زال أثر الجانب الفكـــه من الأمر ، حتى عاودنى الاحساس بالخطر · ولازمنى هذا الاحساس ونحن نعود الى الحجرة ونأخذ مكانينا المتواجهين ·

وخطر لى فجأة ، ما جعلنى أحبس أنفاسى ·

ماذا لو رفضت ؟

ماذا يحدث لو أعلنت له عدم استعدادى للتخلى عن البحث ، أو تعديله ، وعزمى على استكماله ، والوصول به الى نهايته الطبيعية مع قبولى لما سيؤدى اليه هذا من ضياع كل فرصى أمام اللجنة ·

ووجدت أن هذا الخاطر أراحنى للغاية ، كأنما أزاح عن صدرى عبئا ثقيلا · وتطلعت اليه وأنا أتمعن الأمر ، فخيل الى أنه أدرك اتجاه تفكيرى ، لأنه ابتسم فجأة ساخرا ·

أثارت هذه الابتسامة قلقى ، وجعلتنى أتساءل : أيعقل أن يكون الأمر بهذه البساطة ؟ أنت حر توافق أو ترفض · واذا رفضت قا ل: « حسنا · أنت وشأنك · سأتركك الآن · ولا أظن أننا سنلتقى مرة أخرى · وداعا » · وعندئذ أرافقه الى الباب الخارجى قائلا : « صحبتك السلامة » · وتنتهى الحكاية ·

اذن ما ضرورة المسدس ؟

أدركت دقة موقفى ، لأول مرة ، بجلاء تام · فاشعلت سيجارة جديدة ، وأنا أحاول السيطرة على ارتعاش يدى ·

أغمضت عينى ، واستعرضت تاريخى · تراءت لى المثل التى آمنت بها فى صباى ، ثم أسقطت منها تدريجيا ما اتضحت سذاجته وعدم واقعيته ، محتفظا بأكثرها أهمية وقيمة ، وما يتفق منها مع طبيعتى وامكانياتى ، مستميتا فى عدم التنازل عنها ، ممزقا بين الضغوط ، مجاهدا فى اعادة تقويمها كل حين ، وتطويرها مع التغيرات المتلاحقة فى عالم اليوم ، متجنبا المزالق والمنحنيات قدر الامكان ، متعرضا ـ فى سبيل ذلك ـ لكثير من الاضرار وما لا يحصى من الاخطار ·

وتمثلت ما آلت اليه حياتي قبل أن أتقدم الى اللجنة ، ومـا لحق بى من مهانة على يدها · ولم أنس ، من ناحية أخرى ، أن البحث الذى كلفتنى به ، قد أعطى لحياتى شيئا من المعنى ، بعـد طول خواء ·

فتحت عينى ، فوجدته ينظر الى ·

تضاحكت قائلا بصوت جاهدت أن أجعله عاديا :

« مارأيك فى فنجان من القهوة ؟ ان الخمول يكاد يصرعنى »·

قال : « كما تشاء » ·

انطلقنا الى المطبخ · وألقيت نظرة فى الطريق على مرآة صغيرة معلقة فوق حائط الممر ، فألفيت عينى فى لون الدم ·

سألته عندما بلغنا المطبخ : « هل تمانع فى أن نشربها تركية هذه المرة ؟ »

لم يعن بالرد وانشغل بتأمل محتويات « مكتبة الممر » ، كمـا أسميها ، فاعتبرت موقفه بمثابة القبول ·

أخذت « كنكة » متوسطة الحجم من أحد الرفوف وعدت أسأله- « كيف تفضلها ؟ »

أجاب : « قليلة السكر » ·

وتناول أقرب الكتب اليه ، فأخذ يقلب صفحاته ، دون أن يغفل عنى ·

لم أجد ملعقة صغيرة فوق رخامة الحوض ، فجذبت درج أدوات المطبخ ، وعندئذ وقعت عيناى على سكين اللحم الكبير ، ذى الشفرة اللامعة والرأس المدببة ٠

قفز قلبى بين ضلوعى ، فتمالكت نفسى ، وتناولت الملعقة التى أريدها ، ثم أعدت الدرج الى مكانه ٠

وضعت السكر والبن في الكنكة ، ثم ملأتها بالماء ، وقلبت الخليط جيدا ، ووضعتها فوق عين الموقد الصغيرة بعد أن أشعلتها ٠

غسلت الملعقة وجففتها بتأن ، ثم فتحت الدرج ، وألقيت بالملعقة الى جوار السكين ، متأملا حافته الماضية ٠ وأعدت الدرج الى مكانه ببطء دون أن أرفع عينى عن السكين ، وحرصت الا أغلقه تماما ٠

وقفت أمام الكنكة حتى بدأت التيارات تتدافع فى جوانبها ، وتتجمع صاعدة الى أن بلغت درجة الغليان ، فانفجرت من عقالها ، وأوشكت أن تجتاح الحافة ، وتسيل من فوقها ٠

أبعدتها بسرعة عن النار ، وأطفأت الموقد ٠ ثم وضعت فنجانين بالقربَ منها ٠

وكنت أشعر ، لأول مرة منذ زمن بعيد ، بفيض من القوة والراحة يسرى فى أطرافى ، ويجتاح كل كيانى ٠

٥

في هذه المرة ، كانت اللجنة مجتمعة عندما وصلت في موعدي، وأدخلني الحارس العجوز على الفور ٠

وجدت أعضاءها ـ فيما عدا القصير بطبيعة الحال ـ يجلسون خلف الطاولة الطويلة التي وضعت بعرض القاعة ، بنفس الترتيب الذي رأيتهم عليه في المرة السابقة ، يتوسطهم العجوز المتهالك ، ضعيف السمع والبصر ٠

ولفت نظري جو الحداد المخيم الذي تجـــلى في الشارات السوداء المشبوكة في ياقات ستراتهم ، وأكاليل الزهور المصفوفة على جانبي القاعة ، تحيط بكل منها لفافة من القماش الأسود اللامع . وتعلوها بطاقة عريضة باسم مرسلها ، في حروف بارزة ٠

جعل أعضاء اللجنة يتفرسون في ، وهم يقلبون بين أوراق الملفات الموضوعة أمامهم ، بينما كنت أطالع في فضول أســـماء المعزين ٠ وتبينت في مقدمتها الرئيس الاميركي كارتر والسيدة الاولى زوجته، ونائبه والتر مونديل ، ومستشاره للأمن القومي برجينسكي ٠ كما قرأت أسماء المستشار السابق كيسنجر ، وعدد من الرؤســاء

السابقين للولايات المتحدة مثل نيكسون وفورد ، بالاضافة الى روكفلر وروتشيلد ، ورئيس البنك الدولى ماكنمارا ، ورؤساء الكوكاكولا ، ومديرى البنوك العالمية ، وشركات الأسلحة واللبان (العلكة) والأدوية والسجاير والأجهزة الكهربائية والالكترونية والبترول ، ورؤساء فرنسا والمانيا الغربية وانجلترا وبلجيكا وايطاليا والنمسا ، ومرسيدس وبيجو وفيات وبدفورد وبوينج ، وامبراطور اليابان ·

ولم أجد صعوبة فى العثور على أسماء رئيس الوزراء الاسرائيلى بيجين ، ووزيريه دايان ووايزمان ، ورؤساء الحكومات العسكرية فى تشيلى وتركيا وباكستان واندونيسياوالفيليبين وبوليفيا ورئيس زائير موبوتو ، والملوك والرؤساء العرب ، وأفراد أسرة شا هايران السابق ، وماما دوك السيدة الاولى فى جزر تاهيتى ، ورؤساء الصين الشعبية ورومانيا وكوريا الجنوبية وقادة الشعب الأسترالى ·

وكان ثمة أسماء كثيرة من الشخصيات اللامعة فى العالم العربى ، من رؤساء للاحزاب القائدة ، وكبار المسؤولين عن الأمن والاعلام والدفاع والتخطيط والتعمير ، وعملاء الشركات الأجنبية، فضلا عن ألمع « الدكاترة » وبينهم مواطنى المعروف ·

واذ وجهت اهتمامى أخيرا الى أعضاء اللجنة ، شعرت أن تغييرا ما لم أتبين كنهه ، قد طرأ عليهم منذ آخر مرة رأيتهم فيها · وتضاعفت حيرتى وأنا أنقل البصر بينهم ، ملتمسا التفسير لما شعرت به · فلم تكن الجهامة التى تعلو وجوههم بالأمر الجديدعلى· وقد عرفت فيهم ـ رغم العوينات السوداء على وجوه أغلبهم ـ نفس الأشخاص الذين التقيت بهم مرتين قبل الآن ·

ومع أنى فشلت ـ للمرة الثالثة ـ فى احصاء عددهم ، من جراء عجزى عن التركيز ، الا أنى كنت موقنا بأنه لم يزد أو ينقص، اللهم الا فيما يتعلق بالقصير ، الذى كان مقعده الخالى ـ الى جوار العجوز ـ مجللا بالسواد ، بمثل ماكانت صورته المعلقة فوق الجدار، اشارة الى ما انتهى اليه أمره ·

ولم أكتشف السر الا بعد أن تطلعت الى العانس عدة مرات · فقد تبينت أخيرا ما غاب عنى فى البداية ، اذ كانت ترتدى الملابس العسكرية ذات الشارات الحمراء الموشاة بالذهب ·

ولعل تأخرى فى هذا الاكتشاف يرجع الى أنى ألفت أن أرى بين أعضاء اللجنة ثلاثة من العسكريين ، وقد سجل لاشعورى هذا العدد من اللحظة الأولى ، فاكتفيت بذلك ، ولم أول اهتماما لاشخاصهم ، شعورا منى بأنهم جميعا ـ بسبب ملابسهم ـ متماثلون ·

أما الآن فقد دققت النظر الى العسكريين الآخرين حتى تأكدت من جنسيهما ، ومن شخصيتيهما · وبحثت عن الثالث حتى وجدته بعد مشقة بسبب التغيير الذى أضفته الملابس المدنية على هيأته ·

أثارت هذه الظاهرة فضولى ، فانطلق عقلى الذى دربته أحداث العام الأخير على استكناه الالغاز والغوامض ، يحاول ايجاد تفسير لها ·

كان اعتقادى فى السابق أن اللجنة مختلطة أى مدنعسكرية · لكن استبدال الملابس بالصورة التى رأيتها اليوم هز هذا الاعتقاد من أساسه ، فلم يكن يعنى سوى أحد أمرين : أما أن اللجنة تتألف كلها من عسكريين يرتدى بعضهم الملابس المدنية أحيانا ، أو من مدنيين يرتدى بعضهم الملابس العسكرية أحيانا ·

وفي كلتي الحالتين لم يكن ثمة مغزى للاستبدال · حقا ان التخلي عن الملابس يمكن أن يعتـــبر مؤشرا على انكماش الروح العسكرية فى اللجنة ، أو تقلصها ، وهو الأمل الذى داعبنى لحظـة خاطفة بالنظر الى ما اشتهر عن العسكريين من قسوة وايلاغ فى الدماء ، وقوى منه ارتداء العانس لها ، طالما أنها ــ بحكم أنوثتها (رغم احباطها) ــ أكثر انسانية · لكنى لم ألبث أن رأيت فى الاستبدال ــ لهذا السبب بالذات ــ تأكيدا للطابع العسكرى بدلا من أن يكون تخفيفا منه ·

انتزعنى رئيس اللجنة من تأملاتى اذ نطق بصـــوت رصين شابته رنة أسى ، فقال بلغة اللجنة :

« نستهل عملنا اليوم بالوقوف لخمس دقائق حدادا على الفقيد » ·

أزاح الأعضاء مقاعدهم الى الخلف ونهضوا واقفين · أما أنا فلم أتحرك من مكانى ، لأننى كنت واقفا · فاللجنة لا تسمح لأحد بالجلوس فى حضرتها ·

رفعت عينى الى صورة الفقيد المعلقة على الجدار ، خلف الرئيس ، وثبتهما على عينيه ، مشاركة منى لأعضاء اللجنة فى مشاعرهم ، وركزت ذهنى طوال الدقائق الخمس التى تتابعت ببطء شديد ، فى محاولة مخلصة لتذكر الطريقة التى كان يحركهما بها ، كل واحدة فى اتجاه ، أثناء حياته الحافلة ·

تنحنح الرئيس عدة مرات ، كأنه يقوم بشحن البطارية التى سيعمل بها صوته ثم انطلق يقول ، موجها حديثه الى زملائه بينما كان يتطلع الى أكاليل الزهور ، كأنما يخاطب في الحقيقة مرسليها :

« حضرات الأعضاء الموقرين • هذه احدى المرات النادرة التى تنعقد فيهـــا لجنتكم لتبحث أمرا يخرج عن مألوف عادتها • وفيما يتعلق بالفقيد فانها المرة الثالثة التى نجتمع فيها بسببه • واذا لم تخنى الذاكرة فان المرة الأولى كانت فى منتصف الخمسينات عندما قررنا ضمه الى اللجنة • ومازلت أذكره كما كان وقتذاك ، ممتلئا شبابا وحيوية • أما المرة الأخرى فكانت فى العام قبـــل الماضى ، عندما احتفلنا بفوزه بجائزة ، « النسر الذهبى » ، تقديرا لجهوده فى خدمة أهداف اللجنة •

« والواقع أن الفقيد لعب دورا هاما فى الاعداد لكثير من التحولات الرائعة التى تحدث حولنا ، وفى صياغة الشكل الذى تحققت به •

« وبفضل هذا الدور تتفتح اليوم ـ من جديد ـ الامكانيات التى تراءت فى الخمســـينات ثم قبرت فى الســـتينات وأوائـــل السبعينات ، لتحقيق أحلام البشرية والقضاء على كافة المخـــاطر التى تهدد النوع الانسانى •

ونحن نشير بذلك الى الحلم القديم ، وهو حلم الوجـــدة الأرضية ، أو الولايات المتحدة الأرضية ، حيث يندمج سكان الكوكب جميعا فى دولة متجانسة ، تحقق لهم الرخاء وتنشد لهم الحيـــاة الأفضل •

« وهذا يبين عمق الخسارة التى أصبنا بها ، وأصيبت بها قضية الحضارة والتقدم ، وقضـــايا الاشـــتراكية والســـلام والديموقراطية » •

توقف لحظة ليترك للحاضرين فرصة تمثل الاستنتاج الذى توصل اليه ، ثم استأنف حديثه :

« لقد حرصنا فى كل أعمالنا على أن نبقى بمنأى عن أى ارتباط مباشر بالأجهزة الرسمية ، والسلطات التنفيذية ، رغم الشائعات التى طاردتنا ، والتى كان لها أساس من الصحة فى حالات معدودة ، مست المبدأ المذكور وان كانت فى الحقيقة تدعيما له ·

« ونحن نواجه الآن حالة مماثلة أرغمتنا ، بسبب من خطورتها على أن نتصدى لمعالجتها · فلا يخفى عليكم ما لها من دلالات بالنسبة للمستقبل ·

« ومما يضاعف من دقة الأمر ، ما تتعرضون له من مشقة وعنت ، بالنظر الى أنكم تواجهون الآن ، مباشرة ، اليدين المضرجتين بدماء أحد زملائكم » ·

سرت همهمة غاضبة بين الأعضاء الذين لم يرفعوا عيونهم عنى طول الوقت · وألفيت نفسى مدفوعا الى الكلام · وعلى غير ما توقعت خرج صوتى مهتزا بكلمات غير التى كنت قد أعددتها ·

قلت : « أرجو أن يتسع صدركم لى كى أبسط وجهة نظرى · وانى واثق انكم من السماحة والكرم بحيث تسمحون لى أن أتحدث باللغة العربية كى أحسن التعبير عن نفسى · وتأكدوا أنى أشارككم الألم لخسارتكم ، فهى خسارة لنا جميعا » ·

خاطبنى الأشقر فى حدة :

« ستتكلم عندما نأذن لك » ·

تناول العجوز رشفة ماء من كوب أمامه ثم استطرد :

« لقد وضعت اللجنة نفسها منذ البداية فى خدمة الأهداف الثورية ، والمبادىء الأخلاقية ، والقيم الدينية · وساند أعضاؤها كل ما من شأنه دعم المقومات الأساسية ، وتعميق الممارسات الحرة ·

« وطبيعي أننا أثرنا بذلك حفيظة عناصر الشر والهدم التي لم تأل جهدا في مقاومتنا · واشير في هذا الصدد الى ما أثير من ضجة مفتعلة حول الأساليب التي نستخدمها في عملنا ، والى الاتهامات التي أغدقت علينا ، بالسادية حينا ، والديماغوجيــــة حينا آخر ·

« وقد حاولت هذه العنـــاصر دائمـــا أن تربط بيننا وبين الانقلابات السياسية والمذابح الطائفية والحروب الصغيرة ، الدائرة على قدم وساق في العالم العربي ، بل وبعض حالات الانتحــــار الغامضة ، وحوادث متفرقة لأشخاص اختفوا نهائيا دون أن يعثر لهم على أثر ، وآخرين سقطوا من أسطح البنايات ، أو قتــلوا في حوادث عرضية للسيارات ·

« الا أن الاعتداء على زميلنا يمثل تطورا بالغ الشأن في هذه المحاولات ، الأمر الذي يتطلب منكم اهتماما خاصا · فاذا ما بدت مهمتكم يسيرة لأن المجرم ماثل أمامكم ومقر بما ارتكبه من اثم ، فان هذا ليس سوى خداع السطح البراق ، وواجبكم هو أن تنفذوا الى الأعماق » ·

بدت على العجوز علامات الارهاق ، وهو يتراجع الى الوراء في مقعده ، كأنما يفسح المجال لزملائه · وكانت العانس العسكرية هي أول من تكلم منهم فخاطبتني قائلة :

« يمكنك الآن أن تتكلم » ·

كان صوتها رقيقا ، لكنه لم يخف ما يكمن بين طياته من صرامة ضاعف منها اشارتها الى رد الأشقر علي ، بما يتضمن التأييد لحدته ·

والواقع انني كنت شديد الانتباه لنظرات العيون ، وايماءات

الرؤوس ، ونبرات الأصوات ، وبالاختصار كل بادرة يمكن أن استشف منها ما ينتظرنى من مصير ٠

وليس معنى ذلك أن الشكوك كانت تساورنى بشأنه ٠ فقد هيأت نفسى قبل مجيئى لأسوأ الاحتمالات ، اذ انى لم أنكر شيئا منذ البداية ولم أحاول تبرير فعلتى ٠ ومن ناحية أخرى فان الندم لم يساورنى ، اذ غشيتنى قناعة بأن ما حدث كان لابد أن يحدث ٠

هكذا أعددت دفاعى على صورة اتهام موجه الى اللجنة ٠ واخترت له كلمات قوية ٠ فما دامت النتيجة محتومة ، فلا بأس من الاحتفاظ بكرامتى ، ومواجهة المحتوم فى اباء وشمم ٠

لكنى لم أكد أواجه اللجنة وأستمع لكلمات رئيسها حتى تبخرت صلابتى ، وخرج صوتى مهتزا ضعيفا ، وأنا الذى خططت له أن يدوى فى القاعة ثابتا ، شامخا ، اتهاميا ٠

قلت بصوت يذوب رقة ، مستخدما لغة اللجنة :

« انى أشكر لكم هذه الفرصة التى اتحتموها لى كى أتحدث امامكم ٠ وأحب أن أؤكد مرة أخرى ادراكى لعمق الخسارة التى حاقت بكم ٠ فاللجنة لا تفقد أحد أعضائها كل يوم (وابتسمت بالرغم منى ، لكنهم بالطبع لم يشاطرونى الابتسام) ٠

« وأصدقكم القول بأنى عندما جئت اليوم لم أكن أفكر فى الدفاع عن نفسى ٠ فأنا مقر بما فعلته ، وقابل لكافة النتائج المترتبة عليه ٠ ومع ذلك فكلى أمل أن يشفع لى تاريخى وسلامة طويتى والظروف التى أحاطت بى ٠

« وأعتقد انكم تعرفون جيدا أنى لم يسبق أن أقدمت على عمل من أعمال العنف ٠ فأنا مجرد انسان عادى ، يؤثر السلامة قدر الامكان ٠ وتلك الاعمال الجسورة التى يتحدث عنها الآخرون ويتباهون بها ، ليست بالنسبة لى غير مادة للقصص والروايات ٠

« وعندما مثلت أمامكم أول مرة ، لم يكن لى من غرض سوى أن أنال رضاكم ، اذ تبينت أنه الطريق الوحيد لتطوير مواهبى والبرهنة عليها ، خاصة وأن أفضل أصحاب المواهب قد سبقونى للمثـــول أمامكم ٠

« واذا كانت التطورات التى جرت بعد ذلك تعود أساسا الى شغفى بالمعرفة ، فان ما صدر منى فى حق زميلكم ـ أو على الأصح فى صدره ـ لم يكن غير رد فعل طبيعى لانسان بسيط فى حالة دفاع عن النفس » ٠

قاطعنى الرئيس قائلا :

« لكنك قررت ـ عقب الجريمة مباشرة ـ أنه لم يهاجمك أو يتعرض لك بالأذى » ٠

قلت : « هذا صحيح ٠ لكنه كان يحمل مســدسا ٠ ولهذا فاستخدم العنف ضدى كان واردا منذ البداية ٠ ومن المؤكد أنى لو لم أبادر بالقضاء عليه فانه ما كان سيتركنى فى سلام ٠ على أنى لا أريد أن أدافع عن موقفى ٠ وما أبغيه هو أن تضعوا فى تقديركم حالتى النفسية والعصبية ، وكونى لم أنم على الاطلاق أثناء وجوده معى ، فضلا عن الحصار الذى فرضه على » ٠

انحنى الأشقر الى الامام وتطلع الى بعينين ملونتين قاسيتين ثم قال :

« اذن فأنت تريد أن نقبل صورة البرىء سليم النية التى تحاول أن تبيعها لنا ؟ »

كان يعتمد فى حديثه دائما ـ كما لاحظت ـ أن يستخدم التعبيرات المميزة للغة اللجنة ، وهى تعبيرات كانت تثير اعجابى ٠

قلت : « أنا لا أبيع شيئا ، رغم أن البيع والشراء هذه الأيام شـــملا كل شيء ، كما أكدت لى الدراســـة التى قمت بها عن « الدكتور » • أنا أقرر الحقيقة » •

ضحك ساخرا : « لعلك تظننا من السذج • يجب أن تعـرف أننا أدركنا من اللحظة الأولى لوقوفك أمامنا أنك تظهر غير ما تبطن • فقد كانت اجاباتك على الأسئلة التى طرحناها عليك دقيقة وموفقة ، مما أثار شكوكنا •

« واذا كان بيننا من ظل مترددا فى القطع بأمرك ، فانه حسم رأيه عندما اتخذت من الدراسة المطلوبة منك ذريعة لنبش تاريخ الدكتور وجمع المعلومات عنه ، وأصررت على المضى فى هذا العمل رغم التحذيرات المختلفة التى وجهت اليك » •

وجه حديثه الى أعضاء اللجنة واستطرد :

« ان كل الدلائل تؤكد أننا نواجـــه مؤامرة كبيرة ، حيكت خيوطها بمهارة وخبث شديدين منذ بعض الوقت ، وليس الاعتداء على حياة الفقيد سوى حلقة من حلقاتها » •

انزعجت كثيرا لكلام العضو الأشقر ، فها هى الامور تتخـذ اتجاها مفاجئا لم يخطر لى ببـال ، ولن يؤدى الا الى مزيد من الاساءة الى موقفى •

سارعت بالقول وأنا أتضاحك مبديا كل ما أستطيع من مظاهر البراءة والطيبة بل الغفلة :

« سيادتك تملك خيالا نشيطا • ولا أظنك تتكلم جادا » •

قال بحدة : « لن تجديك المراوغة » •

قلت : « أؤكد لك أني برىء » ٠

قال مستنكرا : « وتتراجع أيضا عن اعترافاتك ؟ »

قلت : « لم أقصد تبرئة نفسى من ٠ ٠ ٠ أقصد أنه لا توجد ثمة خطة ، واذا وجدت ، فليس لى بها علم » ٠

قال بلهجة المنتصر :

« آه ٠٠ ها أنت تقر بوجود خطة » ٠

قلت فزعا : « أبدا ٠ لقد أردت فقط أن أؤكد مرة أخرى ٠٠٠»

أشار الى عضو يجلس فى طرف الطاولة ، فتناول هذا جهازا للتسجيل من تحت الطاولة ووضعه فوقها ٠

قال الأشقر مخاطبا اعضاء اللجنة :

« سأريكم الآن أيها السادة كيف أنه أقر ــ بلسانه ــ بوجود شركاء له » ٠

أدار العضو الجهاز فسمعت صوتا غريبا لم ألبث أن ميزت فيه صوت تدفق المياه وارتطامها بسطح صلب ٠ ثم تكلم رجل معربا عن دهشته من لون المياه الاسود ٠ وعرفت فيه القصير فارتعدت ٠

سمعت صوتى يقول : « لابد أنك تستخدم جهازا للتقطير ؟ »

ثم صوت القصير مستغربا : « وكيف عرفت ؟ »

وأخيرا صوتى : « لقد عرفت أشياء كثيرة فى الآونة الأخيرة»٠

أومأ الأشقر لمدير الجهاز فأوقفه وخاطبنى ساخرا :

« أليس هذا صوتك ؟ »

قلت : « أجل ٠٠ لكن هذا لا يعنى ٠٠٠ »

لم يدعنى أواصل كلامى وصاح :

« كيف تأتى لك أن تعرف هذه المعلومة التى لا نعرفها نحن عن زميلنا الا اذا كان لك شركاء يمدونك بالمعلومات ؟ »

تدخلت العانس فى الحديث قائلة :

« ليس من الضرورى أن تكون المؤامرة قائمة منذ البداية · فربما ولدت فى وقت لاحق · وهذا ما تدل عليه اشارته الى أنه عرف أشياء كثيرة فى الآونة الأخيرة » ·

ووجهت الى الحديث مستأنفة : « هذا أفضل لك ، لأنه يعنى أنك كنت سليم النية فى البداية ثم وقعت تحت أثير العناصر الهدامة والمنحرفة · فاذا ذكرت لنا أسماءهم ، ربما كان لذلك أثر فى تخفيف الأمر بالنسبة لك » ·

ضغطت يدى فى يأس وأنا أقول فى صوت جاهدت لأجعله ناطقا بالصدق :

« أرجوكم أن تصدقونى · لقد وقع كل شىء بمحض الصدفة ·»

سألنى أحد الأعضاء : « ألم يمدك أحد بالســـكين التى استخدمتها ؟ »

أجبت : « أبدا · لقد كانت موجودة ـ كما ذكرت من قبل ـ فى المطبخ »

سألنى عضو آخر :

« كيف تأتى لك أن تعرف تلك الأشياء التى أشرت اليها ؟ »

أجبت : « من الصحف » ·

ضحك العضو وتطلع الى زملائه كأنما لا يصدق أن تكون الصحف مصدرا للمعرفة ·

قلت موضحا : « لقد اضطرنى بحثى عن الدكتور الى مراجعة أعدادها على مدى ربع قـــرن · ومكننى هذا من رؤية الوقائع

والأحداث فى ترابطها والوصول الى استنتاجات قيمة يسرت لى تفسير كثير من الظواهر المعاصرة » ٠

مال أحد العسكريين فجأة الى الامام وقال :

« هل لك أن تحدثنا عن هذه « الظواهر » كما تسميها ؟ »

قلت في اعياء : « أعتقد أن اجابتي على هذا السؤال ، الذى سبق أن وجهه الى الفقيد ، موجودة فى الأوراق التى أمامكم ، بالنظر الى كفاءة الأجهزة التى تملكونها » ٠

قلب فى عدة أوراق أمامه وهو يقول :

« أجل ٠٠ أجل ٠ لدينا هنا بضع أمـــور ٠٠ الأمراض النفسية والسيجارة المصرية ٠٠ مياه الحنفية ٠٠ الأدوية الأجنبية والكوكاكولا ٠٠ لكنك لم توضح لماذا تعتبر هذه الأمور دون غيرها ظواهر جديرة بالالتفات ؟ »

قلت : « لم أقل هذا أبدا ٠٠ لقد ذكرتها فى معرض الاستشهاد بأمثلة ٠ فالظواهر الماثلة لا تعد ولا تحصى » ٠

قال : « لقد تجنبت أيضا الحديث عما تبينته بصددها ، كما أنك أشرت الى العلاقة بينها دون أن توضح ما تعنيه بذلك » ٠

فكرت بسرعة حتى وصلت الى قرار ، فقلت بلهجـــة من استبان أخيرا أن الصدق والصراحة التامة هما أسلم وسائل الدفاع:

« سأتحدث بصراحة كى أثبت لكم صدق نيتى وسلامة طويتى ٠ والواقع أنى ضحية لطموحـى من ناحيـة وشغفى بالمعرفـة من ناحية أخرى ٠ ولولا الخاصية الأخيرة بالذات ما وقفت هذا الموقف الآن » ٠

قاطعنى العسكرى قائلا :

« الأفضل أن تطرق الموضوع مباشرة » ·

قلت : « لقد أردت فقط أن أوضح كيف انسقت الى التفكير فى هذه الأمور والبحث عن تفسير لها · الا أنى سرعان ما تبينت أن تناول احداها بمعزل عن البقية لن يؤدى بى الى شىء · والنتيجة ذاتها تنتظرنى اذا ما تناولتها جميعا ، من خلال العلاقات المتبادلة بينها ، دون أن يكون لدى المنهاج السليم للبحث ·

« هكذا توصلت الى نقطة البدء ، وهى العثور على المنهاج الذى يصلح لتفسير كل ظاهرة على حدة ، وكافة الظواهر فى علاقتها بعضها ببعض » ·

بدا على وجوههم الاهتمام ، وأدركت أنى أثرت فضولهم الى أقصى حد ، فتابعت :

« أقبلت أجرب كافة المناهج المعروفة دون أن أصل الى شىء · وذات يوم كنت أفكر فى الأمر عندما قلت لنفسى : ان مشكلة هذه الظواهر والالغاز أنها لا تتصل بمجال واحد من مجالات الحياة ، وانما تمتد الى مجالات متنوعة · ومعنى هذا أن « التنوع » هو طابعها الأساسى ·

« وهنا تذكرت احدى النتائج الهامة التى توصلت اليها فى بحثى عن الدكتور ، وهى مساهمته فى تطوير اللغة العربية بابتكار اشتقاقات جديدة من كلمات عادية ، منها ذلك المصطلح الفذ : « التنويع » · ففيه وجدت ضالتى » ·

تحدث العضو البدين لأول مرة ، وهو الذى كان يرتدى سترة بيضاء فى مقابلتى الأولى باللجنة ، وقد استبدلها الآن بأخرى من القطيفة الحمراء ·

قال : « هل يمكن أن تعطينا مثالا لما تعنيه ؟ »

أجبت : « هذا ما كنت أنوى أن أفعله حالا · وسأتخذ لمثالى موضوعا مألوفا لنا جميعا هو الكوكاكولا · فهناك الكثير من الظواهر الغامضة التى ترتبط بتطور هذه الزجاجة الشهيرة ·

« وعلى سبيل المثال ، فقد قرأت عن حملة واسعة ثارت فى الولايات المتحدة عام ١٩٧٠ حول سوء معاملة ربع مليون من العمال الموسميين فى المزارع التابعة لشركة الكوكاكولا · أقول المزارع لا المصانع · وقد انتقلت هذه الحملة الى التليفزيون ومنه الى قاعات الكونجرس · وقام السناتور والتر مونديل ، عضو لجنة العمال الموسميين به فى ذلك الوقت ، باستدعاء رئيس الكوكاكولا ليجيب رسميا على الادعاءات الموجهة الى شركته ، أمام مجلس الشيوخ الاميركى ·

« ولم تمض ثلاث سنوات ، حتى كان رئيس الكوكاكولا يشارك فى اختيار مونديل هذا لعضوية اللجنة الدولية التى حدثتكم عنها فى لقائنا الأول ، ثم ليكون نائبا للرئيس الاميركى كارتر ·

« وفى نفس الوقت الذى نجدها متهمة بابتزاز حفنة دولارات من عمالها ، نقرأ أنها خصصت مبالغ طائلة للاعمال الخيرية والثقافية التى تمتد من ادارة جامعة كاملة الى جائزة هامة للابداع الفنى والأدبى ، ومنحة ضخمة قدمتها عام ١٩٧٧ لمتحف بروكلين الاميركى ليعمل على انقاذ آثار الفراعنة المصريين من الانهيار ·

« وبينما تمثل مياه الحنفية المنافس الوحيد لها الآن (فهى توزع ٢٠٠ مليون زجاجة يوميا فى العالم حسب احصائيات عام ١٩٧٨) ، نراها ترعى مشروعا لازالة ملوحة مياه البحر تقوم به

شركة « أكواشيم » التى اشترتها الكوكاكولا قبل عدة سنوات وبالتحديد عام ١٩٧٠ ·

« أثارت هذه المتناقضات حيرتى فقمت بابحاث عدة علمت منها أن شركة الكوكاكولا ظلت منذ نشأتها أمينة لمبدأين أساسيين وضعهما مؤسسوها العظام · المبدأ الأول هو أن يصبح كل مشترك فى مغامرة الكوكاكولا غنيا وسعيدا · والمبدأ الثانى هو أن يقتصر نشاطها على انتاج سلعة واحدة هى الزجاجة المعروفة ·

« لكن رياح التغيير التى هبت فى أوائل الستينات ، أرغمتها على الأختيار بين المبدأين · وكيلا تضحى بالمبدأ الأول ، فضلت أن تقوم بتنويع منتجاتها · فبدأت بانتاج أنواع أخرى من المياه الغازية ، ثم مدت نشاطها الى زراعة الموالح والبن والشاى ، وأصبح لها مزارع واسعة فى نفس الولاية التى ولدت بها ، وهى ولاية جورجيا ، تجاور مزارع الرئيس الاميركى كارتر · وربما كان هذا الجوار هو المسؤول عن تماديها فى سياسة التنويع بالاشتراك فى الأمور العامة ، المحلية والدولية ·

« ولا شك فى أن النجاح كان من نصيب هذه السياسة · ويكفى الاشارة فى هذا الصدد الى عودة الزجاجة العتيدة الى كل من الصين ومصر بمبادرة وطنيين شجعان ، ذوى مبادىء ، فى البلدين ·

« غير أن هذا النجاح تمخضت عنه ظاهرة غريبة · فمع استخدام الوسائل الحديثة وتقليل تكلفة الانتاج بالاعتماد على عمال موسميين ذوى أجور منخفضة ، أضبحت الكوكاكولا من أكبر منتجى الفواكه الطازجة فى العالم الغربى · لكنها وجدت نفسها للاسف مرغمة على القاء جانب كبير من هذا الانتاج فى البحر كى لا ينهار السوق العالمى ·

« ولم يكن من حل لهذه المشـــكلة الا بمزيد من التنويع • فاستغلت امكانياتها الضخمة وخبرتها بميدان الزراعة ، فى رعاية عدد كبير من مشروعات الأمن الغذائى فى البلاد المختلفة ، منهـا مشروع لزراعة البقول فى « أبى ظبى » تقوم به شركة « أكواشيم » التابعة لها • كما قامت بابحاث واسـعة لانتـاج شراب غنى بالبروتينات والعناصر المغذية الأخرى ، تعوض به المستهلكين عن الفائض الذى تضطر لالقائه فى البحر » •

توقفت لحظة ريثما بلعت ريقى ثم استطردت :

« هكذا ترون أيها السادة ، كيف أن التنويع يصلح ــ فى حالة الكوكاكولا ــ مفتاحا لفهم أغلب الظواهر المرتبطة بها • وقد وجدت بالبحث ان هذا المفتاح قادر على فك مغاليق أخرى كثيرة •

« ان نظرة واحدة للواقع العربى تكفى للبرهنة على صحـة قولى • فهى تكشف لنا من الوهلة الأولى عن ظاهرة « التنويع » فى أشكال الأنظمة (وهو بالتأكيد مخطط له بالنظر الى أن هذه الأنظمة لا تختلف عن بعضها فى الجوهر) وفى وسائل العمـل السياسى ، وشعاراته وأهدافه •

« ففى وقت من الأوقات ، كانت هذه الأنظمة تتوجه الى شعوبها بوسيلة اقناع واحدة لا تتغير هى السجن والتعذيب • لكن التنويع أضاف اليها أساليب أخرى متنوعة من التصفية الجسدية الى التليفزيون والمجالس النيابية •

« وفى وقت من الأوقات ، كانت الأنظمة ترفع شـعارات أساسية لا تتغير ، لكنها أدركت أخيرا أهمية تغيير هذه الشعارات بين الحين والآخر ، وتنويع الأهداف والتحالفات والعداوات •

« وبفضل سياسة « التنويع » اتسعت الارتباطات الوحدوية لهذا البلد ـ والتى كانت قاصرة فى الماضى على بقية الشعوب العربية ـ لتشمل الآن الشعوب الاسترالية الصديقة ٠

« وبفضلها توفرت للمصريين الأسلحة الأمريكية والانجليزية والفرنسية والايطالية والالمانية التى حرموا منها طويلا ٠ وبعد أن كان السوق المصرى قاصرا فى الستينات على سيارة واحدة يتم تجميعها فى المصانع المحلية هى سيارة نصر/فيات ، امتلأ الآن بالماركات العالمية المختلفة ، تأتيه سياراتها مباشرة من مصانعها الأصلية ٠

« وبعد أن كانت مشاريع الاسكان قاصرة على خدمة الطبقات محدودة الدخل ، تقدم لها مجمعات متماثلة الشكل والحجم ، اتسعت الآن لتشمل كافة الطبقات ، واكتسبت تنوعا شديدا يمتد من المقابر الى الابراج الفاخرة ٠

« وتصلح السيجارة المصرية نموذجا لعرض وتفسير الظواهر المختلفة ، الغامضة أحيانا ، والتى تصاحب عملية شديدة التعقيد مثل عملية التنويع ٠ فانتم تعرفون ـ ولا شك ـ قوة العادة وسطوة الادمان ٠ وقد بلغ تعلق المصريين بسيجارتهم المحلية أوجه فى الستينات ، عندما منعت السجاير الأجنبية ، وأمكن توحيد عدد من السجاير المحلية فى سيجارة واحدة ، هى التى عرفت باسم البلمونت، نالت توليفتها رضاء الأغلبية ٠

« وهى العقبة التى واجهتها عملية التنويع فى ميدان السجاير٠ وتطلب التغلب عليها جهودا مضنية فى اتجاهات متعددة ، تعددت نتيجة لها فترات الاختفاء المفاجىء للسيجارة المصرية ، مما أجبر المستهلك على تلمس بديل أجنبى لها ٠

« ومن السهل أن نرى فى صدمة هذا الانتقال الاجبـارى المفاجىء ، علة للاصابة بمرض الاكتئاب النفسى ، خاصة وأن السجاير الاجنبية تباع بضعف ثمن السجاير المحلية ·

« ولما كان استهلاك السجاير فى البلاد المتخلفة أوسع منه فى غيرها فالأخيرة تحظر الاعلان عنها كما تنبه مواطنيها الى العلاقة بينها وبين الاصابة بمرض السرطان وتقدم لهم متعا أخرى بديلـة ومتنوعة) يكون الاكتئاب الناشىء أكثر عمقا وأصعب فى العلاج ، مما يدفع شركات الأدوية الأجنبية الى أن توصى أبناء البلاد المتخلفة باستخدام جرعات أكبر من العقاقير العظيمة المضادة لهذا المرض ·

« وهو ما يخلق مشكلة جديدة تتمثل فى الادمان على هذه الأدوية · الا أن التنويع نفسه يقدم الحل لهذه المشكلة · فيلجأ الطبيب الى تغيير الدواء باستمرار أثناء فترة العلاج ، ويساعده فى هذا التنوع الذى تتميز به هذه العقاقير ·

« ومن ناحية أخرى فان الاكتئاب نفسه هو فى أغلب الاحيان بمثابة مفترق طرق يؤدى بعضها الى العنة الجنسية أو التعصب الدينى أو فتور الهمة والقذارة ، أو الخبل ·

« هكذا ترون أيها السادة ، كيف أن منهج التنويع يصلـح لتفسير ظواهر كثيرة فى حياتنا المعاصرة ، وللربط بينها فى سلسلة متينة الحلقات » ·

تكلم أحد الأعضاء بلهجة مترددة وهو يتطلع الى الأشقر بين الفينة والأخرى :

« لقد عرضت وجهة نظرك باسهاب ووضوح ·· لكن ثمـة ما أريد أن أفهمه · أقصد أنك لم تتعرض لموضوع مياه الحنفية » ·

أجبت على الفور بلهجة تشي بالاعجاب :

« لقد أحسنت يا سيدى باثارة هذا الموضوع لأنه يتميز بأهمية خاصة لكافة المشتغلين بالابحاث العلمية • فهو يعطينا مثالا كلاسيكيا للاخطاء التى يمكن أن يتورطوا فيها •

« فقد أغرتنى معرفتى بحجم التوزيع العالمى لزجاجة الكوكاكولا من ناحية ، وبأن الشعب المصرى من الشعوب المدمنة لاستخدام مياه الحنفية فى الشرب (على عكس الشعوب المتحضرة عموما) من ناحية أخرى ، على الربط بين عودة هذه الزجاجة الى مصر وظاهرة قلة مياه الحنفية واختفائها تقريبا بالنهار فضلا عن دكنة لونها وميله الى السواد •

« الا أنى لم ألبث أن اكتشفت أن الظاهرة المذكورة سابقة على عودة الكوكاكولا بسنوات • وبالبحث وجدت أن الحنفية ظلت منذ الستينات المصدر الوحيد لمياه الشرب الى أن طبقت سياسة التنويع وظهرت المياه المعدنية المستوردة • واكتشفت أن التغيير الذى لحق بمياه الحنفية قد بدأ منذ تلك اللحظة ، مما يتفق مع النتائج التى توصلت اليها فى حالة مماثلة هى الخاصة بمصير السيجارة المصرية •

« على أن الوقوف عند احدى النتائج والقناعة بها ، من المخاطر التى يواجهها الباحثون عادة • فبمواصلة البحث ، مهتديا بالمنهاج ذاته ، أمكننى التوصل الى رؤية أعمق تكشف أيضا عن الترابط بين عدد من الظواهر •

« ذلك أن مشروعات شركة « الكوكاكولا » لرى الصحارى ظلت لفترة طويلة قاصرة على مجال واحد هو ازالة ملوحة مياه

البحر • وقد أتاحت لها حرب اكتوبر فرصة ذهبية لتنويع وسائل عملها ، باستخدام مياه النيل فى رى صحراء النقب ، وهو ما تيسر بفضل الانفاق الهائلة المحفورة أسفل قناة السويس • ومن الطبيعى أن يؤدى مثل هذا التنويع الى قلة المياه المنسابة من الحنفيات ، كما ان انخفاض التخزين نتيجة للسحب المتزايد هو المسؤول عن تسلل الشوائب الى المياه وتغير لونها » •

خاطبنى الأشقر بلهجة ظافرة :

« أتريدنا أن نصدق أنك عرفت كل هذه الأشـــياء بجهـدك الخاص عن طريق الصحف ؟ »

أجبت : « أجل » •

تكلم العسكمدنى أو المدنعسكـــرى لأول مرة ، وكان يضــع « باروكة » واضحة على رأسه ، فخاطبنى فى لهجة حازمة :

« من الخير لك أن تدلى على الفور بأسماء شركائك والتفاصيل الكاملة للمؤامرة قبل أن نجبرك على ذلك • فنحن قادرون على فك عقدة لسانك • حقا اننا لا نميل ــ بحكم المبادىء الانسانية التى نسترشد بها ــ الى الالتجـــاء لهذا الســـبيل ، الا أن للضرورة احكامها » •

مالت العانس نحوى وقالت فى رقة :

« لا أظن أننا سنضطر الى ذلك • فهو سيتكلم حالما يتبين مصلحته » •

هبط قلبى بين قدمى وقلت :

« أناأعرف الوسائل التى تشيرون اليها • ومن المؤكد أنهـا ستضطرنى للاعتراف بأى شىء • لكن ما سأعترف به ــ فى هذه

الحالة ـ لن يكون هو الحقيقة · أما أنتم فستظلون دائما فى حيرة من أمرى » ·

ران الصمت على القاعة وجعلوا يتبادلون النظرات · وأدركت ـ كما يقولون بلغة اللجنة ـ أن القذيفة التى أطلقتها فى الظلام قد أصابت مقتلا ·

مال الأشقر على الرئيس وتبادل معه الهمس · وأخيرا تكلم الأخير :

« ربما كان من الأفضل أن تنفرد بنفسك قليلا لتتروى فى الأمر ·· يمكنك ان تخرج الآن ، وسنستدعيك بعد قليل من الوقت لنعرف ما توصلت اليه » ·

أدركت أنهم يريدون التخلص منى ليتشاوروا فى حرية · فغادرت القاعة ووقفت الى جوار حارسها العجوز · وقدمت اليه سيجارة فتناولها منى فى صمت ووضعها خلف أذنه ، بينما أشعلت أنا واحدة استنشقت أنفاسها فى لهفة ·

كان الدهليز خاليا ، يأتيه الضوء من نافذة كبيرة بالجدار المقابل ، تطل فيما يبدو على فناء مهجور · دخنت وأنا أسترق النظر الى الوجه الوادع المستسلم للحارس الجالس الى جوارى · وتمنيت لحظة أن أكون مكانه ، متمتعا بنفس الاستسلام والوداعة · ثم خطر لى أن حالته قد لا تكون طبيعية ، وانما من تأثير مخدر ما ·

وسواء كان هذا هو السبب ، أوأنه أدرك حرج موقفى ، فانه لم يرد على عندما حاولت أن أجاذبه الحديث ، شاكيا من حرارة الجو ·

فرغت سيجارتى ، فالقيت ببقيتها فى منفضة نحاسية الى جوار الباب ، واعتمدت بظهرى على الحائط · كنت عاجزا عن

التفكير ، فرحت أنظر أمامى عبر النافذة شاعراً أنى أتطلع فى الفراغ ٠

وبعد حوالى نصف الساعة ، نهض الحارس فجأة ، كأنما بلغته رسالة سرية ، فاختفى داخل القاعة ، ثم ظهر على الفور وأشار لى بالدخول ٠

دخلت فى وجل وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ٠ ووقفت أمام العيون التى حدقت وأحدقت بى ٠

خاطبتنى العانس فى رقتها المعهودة : « ماذا قررت ؟ »

قلت : « ليس لدى ما أضيفه سوى أن أرجوكم تقدير الظروف الشائكة غير الطبيعية التى أحاطت بى » ٠

قالت فى حدة وشراسة مفاجئتين : « أنت وشأنك اذن »

أزاح الرئيس جانبا بضع أوراق أمامه وتكلم ببطء :

« ان موقفك المتصلب يجعلنا لا نجد مبررا للرأفة بشأنك أى للاستجابة لألتماسك ٠ ولهذا فأنت ـ فى رأينا ـ تستحق أقصى عقوبة مقررة ٠ هذا هو قرارنا بالاجماع » ٠

ونهض واقفا فاقتدى به بقية الأعضاء وهم يجمعون أوراقهم ٠ ثم أزاحوا مقاعدهم الى الخلف ، واتجهوا الى باب جانبى خلفهم ، فغادروا القاعة واحدا خلف الآخر ٠

لبثت أحدق فى ظهورهم حتى اختفى آخرهم ، وأصبحت بمفردى أنا وصورة القصير ذى الوجه القبيح ، وأكاليل العزاء من كافة أنحاء الدنيا ٠

ثم سمعت صوتا عند الباب الرئيسى للقاعة ، وعندما التفت أبصرت الحارس يتطلع الى متسائلا ، فحركت قدمى نحوه فى تثاقل ٠

٦

وقفت فى الخارج حتى انتهى الحارس من ترتيب القاعة ، واغلاق نوافذها . وما أن ظهر عند الباب حتى أسرعت أقدم اليه سيجارة وأشعلها له .

قلت له : « أيمكنك أن تذكر لى أقصى عقوبة لدى اللجنة ؟ »

هز رأسه باعتداد وقال : « اللجنة ليست محكمة » .

قلت مستدركا : « أعرف . ما أقصده هو أقصى عقوبة فى نظرها » .

قال : « هذا يتوقف على أمور كثيرة » .

قلت : « بالطبع » .

قال : « ولكل حالة خصوصيتها » .

قلت : « مؤكد » .

قال : « فى حالتك انت ـ التى تابعتها باهتمام ـ ليس هناك أقصى ولا أقسى من الأكل » .

تساءلت فى دهشة : « الأكل ؟ من يأكل وماذا يأكل ؟ »

تأملنى برهة ثم قال بتؤدة وهو ينحنى ليرفع مقعده :

« أنت تأكل نفسك » .

اختفى بمقعده داخل القاعة ، بعد أن أغلق بابها خلفه ، وتركنى وحيدا فى الممر الكابى الضـــوء · انتظرت عودته كى استزيد من معلوماته ، لكنه غاب طويلا ، فقررت الانصراف · مضيت فى دهاليز خالية ، ووقع أقدامى يتردد خلفى ، الى أن غادرت المبنى ·

انطلقت فى الشوارع على غير هدى وأنا أنقل البصر فى شرود بين وجوه المارة وواجهات المحلات ومداخل البيوت · ومع ذلك أمكننى أن ألحظ كيف استسلمت الغالبية لاغراء البحث عن الثراء والسعادة · فقد كانت صناديق الكوكا كولا فى كل مكان ، يقف الجميع خلفها ، من بقالين وبوابين ونجارين ، بل وصيادلة ·

شعرت بالعطش فتوقفت أمام أحد الباعة الذى ترك دكانا خالية الا من صناديق الزجاجات ، وشغل الرصيف بثلاجة كبيرة منزوعة الغطاء ، تكأكأ حولها العطشى ·

كانت الثلاجة مليئة بالزجاجات السابحة فى المياه · وبدا البائع فى حال من النشوة وهو يلتقط الواحدة منها بحركة خاطفة ، ويرفعها نحو الايدى الممدودة اليه ، وقبل أن تلمسها يد منها ، يكون قد نزع سدادتها بالفتاحة الجاهزة فى يده الأخرى ، وأسرع يتناول واحدة جديدة ·

لمحت يده تتجه نحوى بزجاجة ، فأسرعت أحول بينه ونزع سدادتها ، متسائلا : « باردة ؟ »

تطلع الى باستنكار وقال : « كالثلج » ·

تحسست الزجاجة بيدى فألفيتها دافئة ، فقلت :

« لا · أريد واحدة باردة » ·

قدم الزجاجة الى أحد الواقفين وهو يبدى تأففه منى • مددت يدى أقلب بين الزجاجات فاكتشــفت أن أغلبهـا دافىء ، وأن المياه تخلو من كل أثر للثلج • وانشغل البائع عنى بملاحقـــة العطشى الذين كانوا يمســـحون عرقهم ، ويزفرون من الحر ، فيعالجهم بالزجاجات الدافئة •

راقبتهم يرشفون السائل السحرى وهم يتحسسون الزجاجات بايديهم ، كأنما ليتأكدوا من قدرتهم على التمييز بين الســـاخن والبارد • ثم يزدردون محتوياتها فى اســـتسلام حتى النهاية ، ويدفعون الثمن الذى طالبهم به البائع ، وهو ضعف الثمن المعلن عنه ، بذريعة الثلج الوهمى • ودفعه كل منهم صاغرا وهو يتطلع أمامه فى جمود •

حولت اهتمامى الى البائع الذى كان يتحرك بنشاط وشىء من الشراسة • وقدرت أنه سيدرك مبتغاه سريعا • ولن تلبث الدكان الخالية أن تمتلىء بالســـجائر والحلويات الأجنبية ثم الســـلع المستوردة الأخرى ، من شرائط وأجهزة وعلب محفوظة •

اســـتغرقنى الأمر فلم انتبه الا وفى يدى زجاجة دافئة منزوعة الغطاء ، فرفعتها الى شفتى دون وعى •

دفعت الثمن الذى دفعه الآخرون ، وواصلت السير على مهل الى محطة الاتوبيس ، فوقفت مع الواقفين حتى جاء اتوبيس « كارتر » •

أما السبب فى اطلاق اسم الرئيس الامريكى على هذا النوع من سيارات الاتوبيس ، فلا يعود الى شكلها المميز الذى يشبه دودة كبيرة مكتئبة الوجه ، أو طولها غير العادى ، أو الضجة المرتفعة التى تحدثها أثناء سيرها ، أو ارتفاع أجر ركوبها (خمسة أضعاف الأجر العادى) ، أو كونها صنعت فى الولايات المتحدة ،

وانما الى العلامة المثبتة على جانبها ، بجوار الباب الامامى مباشرة ، وتمثل علما أمريكيا يعلو يدين متصافحتين ، تعبيرا عن الصداقة ٠

وهذا ، فى الغالب ، هو السر فى فرحة الناس بظهورها فى الشوارع منذ عامين أو يزيد ، اذ اعتبروها أولى بشائر الرخاء الموعود ، الذى طال بهم انتظاره ٠ وبدوا مستعدين للتغاضى عن الضجة التى تحدثها على أساس أن الضجة شىء مألوف فى بلد متخلف كبلدنا ، وعن ارتفاع أجرها على أساس الارتفاع العام فى الأسعار العالمية ، وعن دخان العادم المنبعث منها بكثافة ، على أساس أن تلوث البيئة هو من مشاكل الدول المتقدمة وحدها ، وعن انعدام المساند والعلاقات مما يؤدى الى تأرجح الواقفين وتراقصهم ، على أساس افتقار حياتنا الجافة الى شىء من الترفيه ٠

الا أنه لم يكد يمر أسبوع حتى ظهرت على السيارات علامات غريبة ٠ فقد بدأت أعمدتها الداخلية تتساقط ، والمسامير المثبتة فى جدرانها تقع ٠ وتلفت أبوابها الأوتوماتيكية ، وانهارت أجزاء من جدرانها ، كما تمزقت الاطارات المطاطية لنوافذها ، وطارت الصواميل المثبتة للوحات القيادة فظهرت أحشاؤها ٠

ومع صمت الصحف عن هذه الظاهرة العجيبة ، تعددت التفسيرات بشأنها ٠ فمن قائل أن سوء الصيانة هو السبب ، ومن أرجعه الى طبيعة الخدمة الشاقة فى بلادنا ، أو الى عدم كفاءة السائقين ولامبالاتهم ٠

لكن الانواع الاخرى من سيارات الاتوبيس ، التى كانت تجرى الى جوار سيارات « كارتر » فى حالة جيدة ، رغم مضى سنوات على بداية تشغيلها ، ورغم أن بعضها تم تجميعه فى الورش المصرية ، القت ظلالا من الشك على صحة هذه الاستنتاجات

وسواء كان السبب هو الاحباط الذى شعر به الناس لعجزهم عن تفسير هذه الظاهرة ، أو ما درج عليه العامة فى كل زمان ومكان من تحوير الاسماء والصفات حتى يتلاءم نطقها مع مستوى ثقافتهم ومحدودية وعيهم ، فانهم سرعان ما دعوا السيارات المذكورة باتوبيس « طرطر » ٠

وجذب هذا التطور اللغوى ــ فى حينه ــ اهتمامى ، فلجأت الى المعاجم حتى عرفت أن « طر طر » من الأفعال القديمة فى اللغة العربية ، ومعناه فخر بما ليس فيه ، ومنه اشتقت كلمة « طرطور » الذى يلبس فوق الرأس أو تطلق على الوغد الضعيف ٠ أما «الطرطر» كاسم فمعناه راسب الخمر المصفى ، ومن هنا ــ فى الغالب ــ جاء فعل التبول فى اللغة الدارجة ٠

ومن الطبيعى ــ فى ضوء الاحداث التى وقعت لى أخيرا وأدت الى تنشيط عقلى وانشغالى بالتعمق فى الظواهر ومحاولة تفسيرها ــ ان اهتمامى بالأمر انتقل من الجانب اللغوى الى لب الظاهرة نفسها ٠ فتعمدت أن استقل سيارات « طرطر » مرات عديدة ، أقبلت خلالها على فحص اجزائها ومكوناتها فحصا دقيقا لكن النتيجة ضاعفت من غموض الأمر فى نظرى ٠

فقد اكتشفت أنها مصنوعة من أردأ المواد وأرخصها ، بدءا من معدن الهيكل الخارجى الى المسامير المستخدمة فى تثبيت الارضيات ٠ ولا يعقل أن تسير سيارة بهذا الشكل فى شوارع نيويورك ، ولو حتى فى أحياء الزنوج ٠ ولا يعقل أن تكون مصنعة لنا خصصيا (كما فى حالة الأدوية) ، اذ لا أتصور أن صناعة أقوى وأغنى دولة فى العالم يمكن أن تخرج ــ ولو بالقصد ــ مثل هذا الانتاج الهابط ٠ أما اذا كانت الولايات المتحدة قد أرسلت لنا المحركات وحسب ، وتم تجميع السيارة فى بلادنا ، فان هذا

ايضا لا يفسر الأمر ، لأننا نعرف منذ الستينات صناعة التجميع ومازال عدد من المحظوظين يحتفظ بما انتجته المصانع المصرية وقتذاك من سيارات قوية متينة ٠

وعند هذه المرحلة من التفكير ، بدأ أنفى ـ الذى دربته روائح الصحف القديمة ـ يرتعش من الانفعال ٠

الا أن تطورات علاقتى باللجنة لم تتح لى الفرصة كى أصل الى نتائج ذات بال ٠ وظل الأمر فى نظرى ـ كما فى نظر الآخرين ـ لغزا يستعصى على الفهم ٠

تذكرت هذا كله وأنا أشق طريقى بين الركاب المتدافعين ، فوق الدرج الخلفى للسيارة ، متلمسا عبثا ما أستند اليه خلال عملية الصعود ٠ وكانت أمامى سيدة ممتلئة الجسـم ، وقورة الهيئة ، ارتقت الدرج بمشقة ، وما أن استقرت فى الداخل ، وأنا خلفها ، حتى تحركت السيارة فجأة ، ففقدنا توازننا ٠

مدت السيدة يدها تتعلق بأحد الاعمدة المعدنية ، لـكن العمود مال تحت ثقلها ، وأوشكت أن تقع على وجهها ، فتشبثت بى ، بينما كنت مشغولا باخراج الأجرة التى جعل المحصل يطالب بها فى الحاح ، وقد باعدت بين ساقى ، ملقيا بكل ثقلى على قدمى ، لاتجنب السقوط ٠

استعادت السيدة توازنها فتقدمت الى الامام ، وهى تتراقص برغمها ، بفعل حركة السيارة ، واهتزاز أرضيتها التى تفككت ألواحها ، وانفصلت عن بعضها البعض فى أكثر من موضع ٠

ولأننى فى الفترة الأخيرة ـ بحكم انشغالى ـ لم أغادر منزلى كثيرا ، ولم يتح لى أن استخدم سيارات « طرطر » ولا مرة ، فقد لحظت ـ على الفور ـ ما طرأ على مسلك ركابها من تغير ٠

ففى الأيام الاولى لتشغيلها ، كانت الحركة الراقصة التى تحدثها ، تبعث الابتسامة الخجلى على وجود الركاب جميعا ، من راقصين واقفين ، ومتفرجين جالسين ٠

لكنى تبينت اليوم انه بينما تضاعفت حدة الرقصة ، بفعل تخلخل بناء السيارة وتفكك حوائطها وأرضيتها ، الا أن بهجة الركاب بالأمر تلاشت تماما ٠

وتراءى لى أنهم مشغولون بأشياء أخرى ، اذ كانوا يتطلعون سباهمين الى الاعلانات التى زينت الشوارع عن آخر المبتكرات العالمية فى كل ميدان ، والى السيارات الخاصة من أحدث الطرز، المزودة بأجهزة عديدة تحمى ركابها من الضجة والتلوث والحرارة والبرودة وعيون الآخرين ، فتبدو أشبه بمدرعات صغيرة ٠

مضيت أنقل البصر بين الوجوه الشاحبة المنهكة ، متوقفا عند كهل غارق فى تأملات غير سارة انعكست على ملامحه ، وجار له يدخن بعصبية ، وشاب مكوى شعر الرأس تدلت من عنقه سلسلة ذهبية ، وآخر قبضت يده فى حرص على جواز سفر ، وسيدة بنظارة واسعة الاطار بنفسجية اللون مثل فستانها ، تحيط معصمها بساعة على شكل سفينة فضاء ٠

وكان يجلس الى جوارها رجل مكتئب الوجه ، يحمل فى اعتزاز لفافة تصاعدت منها رائحة السمك ، جلبه فى الغالب بسعر أرخص من احد أركان المدينة ٠ وخلفه أوشك رجل أنيق الثياب على النوم ، ورغم أنه تسلح بكافة المعدات العصرية بدءا من النظارة ذات العدستين المدرجتى الدكنة ، والساعة المزودة بآلة حاسبة وتقويم سنوى ومنبه أوتوماتيكى ، الى الحقيبة السامسونايت ٠

وتوقفت عيناى عند راكبتين متجاورتين تسـريلتا ـ بغية الانسحاب التام من عالمنا التعس ـ بثياب فضفاضة داكنة اللون، غطت جسديهما من الرأس الى القدم ، فيماعدا ثقبين فى موضع العينين ، فبدتا أقرب الى بومتين أو اثنتين من الكائنات الفضائية المرعبة ٠

قدرت أنهم جميعا مستذلون مهانون ، يتمتعون بقدرة فائقة على التحمل ٠ واستغرقنى التفكير فى هذا الجانب من الظاهرة ، فلم أنتبه الى ما كان يجرى بجانبى الا عندما داست قدم على حذائى ٠

كنت أقف الى جوار سيدة ممتلئة فى أواسط العمر ، أوشك أن يلتصق بهـا من الخلف عمـلاق فى قميص مفتوح الصدر ، أرسل بصره عبر النافذة متظاهرا بالشرود ٠ وكانت السيدة دائبة الحركة فى محاولة واضحة للابتعاد عنه ، مما جعلها تصطدم بى ٠

أفسحت لها قليلا بقدر ماسمح الزحام ٠ وتطلعت ـ كمـا فعل أغلب الواقفين من حولنا ـ الى الفراغ الضئيل بين ساقه ومؤخرتها ، فألفيته قد ثنى ركبته قليلا الى الامام ، على أهبة التحرش بها ٠ ولم أملك الا أن رفعت اليه عينى فى اسـتياء صريح ٠

وأسارع فأقول أنى شخصيا من المغرمين بذلك الجزء البارز من جسد المرأة ، بل ومن عشاق هذه اللحظات المختلسـة فى الزحام ٠ ووجهة نظرى أن هذا السلوك الذى قد يستهجنه البعض ليس الا بديلا عربيا ، نابعا من واقعنا وشخصيتنا المسـتقلة ، للرقص الغربى ، حيث يمارس الناس الامر ذاته متواجهين ٠

لكن البديل القومى يؤدى وظائف متنوعة أكثر من مجرد تفريغ الرغبات المكبوتة • فهو طريقة ناجحة لمكافحة الملل الناشىء عن الزحام والتوقف المتكرر لفترات طويلة فى الشـــوارع التى زحمتها السيارات الخاصة • كما أنه ـ لدى على الأقل ـ وسيلة هامة ـ مشحونة بالتوتر ـ من وسائل المعرفة •

فالمرأة تظل كائنا مجهولا محملا بعشرات التكهنات ، خاصة اذا ما حملت وجها مترفعا معاديا ، الى أن تكشف عن نفسها فجأة ـ ككتاب ـ اثر لمسة ساق خفيفة ، معلنة تواطئها ، أو اعتراضها •

على أنى جعلت لنفسى قيدا هاما على هذه الممارسة يمثل بالنسبة لى جوهر المتعة الناتجة ، بالاضافة الى أنه يتفق واحد المبادىء الاخلاقية التى وضعتها لنفسى ، وهو تجنب الاساءة الى ألآخرين • فاللمسة الأولى أو الثانية من ساقى لاحدى المؤخرات، تكفى ـ فى حالة شخص مدرب مثلى ـ لأن تعين لى ما اذا كانت المرأة تشاركنى متعتى السرية ، والا تلاشى اهتمامى بها وابتعدت عنها •

وهو ما أثار استنكارى فى مسلك العملاق مع السيدة بعد أن أبدت أكثر من مرة ـ وبجلاء ووضوح تامين ـ نفورها من المشروع الذى عرضه عليها بلمسات متكررة من ساقه •

ويبدو أنه كان يدين بمبادىء أخلاقية مغايرة ، لأنه لم يعبأ بتأففها ومحاولتها الابتعاد عنه ، ولاحقها بلمساته مما دفعها لأن تحتج صراحة •

فقد استدارت اليه فجأة وقالت بصوت منفعل :

« أرجوك أن تكف ! »

بهت ثم انفجر فيها زاعقا : « أكف عن ماذا يا امرأة ؟ »

اجابته في حدة : « أنت تفهم ما أعنى » ٠

ران الصمت على السيارة ، وتحولت اليهما أنظار الركاب، وقد تراقصت فى أغلبها ابتسامة تندر واستمتاع ٠

رفع الرجـــل يده وأهوى بها على وجهها فى عنف وهو يصيح : « يا فاجرة » ٠

انكفأت المرأة فوق الجالس بجوارها وهى تضع يدها على خدها ، وانفجرت باكية ٠ ولم يحرك أحد من الركاب ساكنا ٠

خاطبهم العملاق دون أن يقصد بكلامه شخصا بالتحديد :

« لم يبق الا هذا » ٠

لم يكن من عادتى أن أعرض نفسى لمواقف لا ترتفع امكانياتى البدنية المحدودة الى مستوى مواجهتها ٠ لكنى كنت أغلى منذ الصباح ، بعد أن عجزت عن التفوه أمام اللجنة بما كنت أنتويه ، ثم لم أجن فائدة من خنوعى ، ولم أملك شيئا لبائع الكوكاكولا الذى سرقنى ٠ كما أن الزحام والحر أخذا يضغطان على اعصابى ٠ وباختصار بلغ السيل الزبى ٠

ولا أستبعد أن أكون استمديت بعض الشجاعة من مواجهتى لشخص واحد لا لجنة ، ومن تصورى أن كافة الركاب ــ الذين يعرفون جيدا حقيقة ما حدث ، وتابعوا الأمر كله من بدايته ــ سيقفون الى جانبى ، انطلاقا من اعتبارات دينية أو أخـــلاقية تستنكر المسلك الجنسى للعملاق ، أو اعتدائه بالضرب على امرأة عزلاء ، أو تنتصف للحقيقة وحسب ٠

هكذا ألفيتنى أخاطب العملاق على غير انتظار :

« السيدة لم تدع عليك » ·

حدق فى غير مصدق وتساءل بلهجة تهديدية :

« ماذا تقصد ؟ »

قلت بثبات : « لقد رأيتك وأنت تلزق بها · ولما كانت قد رفضت الاستجابة لك ، كان المفروض أن تتركها وشأنها » ·

زعق : « كاذب · ولا استبعد أن تكون متواطئا معها فى شىء » ·

أبدى البعض اهتماما مفاجئـــا بشىء ما فى الطريق ، واستدار آخـــرون بحيث أعطونى ظهورهم · ولم ينتظر غريمى حتى يبدى غيرهم رأيه ، فقرر أن يحسم الأمر على وجه السرعة ووجه الى لكمة صاعقة ، أصابتنى فى وجهى وألقت بى فوق رؤوس الجالسين ·

وقبل أن أفيق من أثر اللكمة التى رجت رأسى رجا ، وجعلت الدنيا تتراقص أمام عينى ، جذبنى من ذراعى ثم دفعنى من جديد، فارتطم كتفى باحد الأعمدة المعـــدنية ، وفقدت توازنى · رأيتنى أهوى على وجهى ، فمددت يدى اليسرى أمامى ، حتى لمســت الأرض ، وسقطت بكل ثقلى فوقها ·

شعرت بالم حاد فى ذراعى · وكان العملاق قد اندفع فى أثرى . والسباب الموجه لأبوى ينهال من فمه ، لكن اثنين من الركاب اعترضاه · وجعل أكثر من واحد يطيب خاطره ويدعوه للهدوء · كأنما أنا الذى اعتديت عليه ·

وسمعت أحدهم يقول له : « روق بالك • لبؤة ولوطى • والاثنان أغرتهما فحولتك فتحرشا بك • فلماذا تعكر دمك ؟ »

توقف الاتوبيس فى هذه الاثنـــاء ، فأعـــاننى راكب على الوقوف ودفعنى نحو الباب قائلا : « أقصر عن الشر وانزل » •

غادرت الســـــيارة بلا وعى • ووقفت فى الطـريق أتأمـل ملابسى المنكوشة • وعندما حاولت تسويتها ، نبهنى الالم المنبعث من ذراعي الى الوضع الغريب الذى استقر عليه ، ملويا الى الخلف عند المرفق ، وقد برزت عظام مفصله •

انطلقت أبحث عن مستشفى قريب ، يمكن أن التمس فى عيادته الخارجية علاجا بقروش قليلة • ووجدت واحدا لكنى لم أعثر على الطبيب الاخصائى • انتظرته طويلا حتى مللت • ولولا الألم الذى كان يخترق ذراعى عند أقل حركة ، لانصرفت الى منزلى دون أن أعبأ بوضعه الغريب •

وبعد حوالى الساعة ، اقترب منى ممرض ، وأسر الى أن الطبيب لن يأتى مادام قد تأخر الى هذا الوقت ، وأنه الآن فى عيادته الخاصة القريبة ، اذا كنت فى حاجة ماسة اليه •

دفعت له ثمن نصيحته ، وذهبت من فورى الى عيادة الطبيب وبعد أن دفعت خمسة جنيهات عند المدخل ، استقبلنى فى غرفة وثيرة ، مكيفة الهواء ، تتردد فى جنبـــاتها موسيقى أوروبيـــة خفيفة •

هون على الطبيب الأمر بعد أن فحصنى بعناية ، قائلا أن المفصل انتقل من مكانه عند المرفق ، وأنه ليس ثمة خطورة بالمرة • وبضغطة قوية من يده ، آلمتنى ، أعاد الساعد الى مكانه ، ثم كتب لى بعض المسكنات •

انصرفت الى منزلى ، فارتقيت طوابقه السبعة فى اعياء · والتجأت الى فراشى مباشرة ، فاستسلمت لنوم عميق ، أفقت منه على آلام ذراعى · تناولت بعض المسكنات دون جدوى · لم يكن الألم شديدا ، لكنه كان ثابتا · وكانت أمامى كثير من المهام العاجلة التى تستلزم تركيزا فائقا ، فضلا عن ضيق الوقت المتاح لى · ولهذا اضطررت ، عندما استمر الألم فى اليوم التالى وعاقنى عن التفكير ، أن أذهب الى الطبيب مرة أخرى ·

فوجئت بالممرض الذى يتولى استقبال الزبائن يطالبنى بان أدفع جنيها ، فقلت :

« لقد دفعت أمس خمسة جنيهات كاملة » ·

قال : « أعرف · تلك كانت أجرة الكشف · وما أطلبه منك هو رسم الاستشارة » ·

قلت متعجبا : « هذه أول مرة اسمع فيها ان الاستشارة بنقود » ·

لم يعن بالرد على واكتفى بأن أشار باصبعه دون أن يحرك رأسه ، الى لوحة فوقه على الحائط ·

كانت اللوحة ــ التى لم أنتبه لها من قبل ــ تعلن أن للمريض الحق فى زيارة واحدة للطبيب خلال أسبوع من الكشف ومقابل جنيه ·

قلت بانفعال : « لكن هذا هو الاستغلال بعينه » ·

لم يعن بمناقشتى وانما قال ببرود : « هذا هو نظامنا · وأنت حر » ·

تابع الجالســـون من مرضى ومرافقين لهم ، حوارنا فى صمت ووجوه جامدة لا تشى بحقيقة تفكيرها · وسواء خجلت من

أن أبدى أمامهم هذا الاهتمام البالغ بمبلغ تافه ـ فى نظرهم على الاقل ـ مثل الجنيه ، أو كان ألم ذراعى هو السبب ، فانى دفعت المطلوب فى النهاية صاغرا ٠

وبحكم ان زيارتى للاستشارة وليست للكشف ، فقد حل دورى سريعا ، ودلفت الى خن الطبيب ثم جلست فوق المقعـد المجاور لمكتبه ٠ ولحظت على الفور شحوب وجهه ، واللمعان الغريب الذى كسى بشرته ٠

باغتنى بالقول : « اذن فانا فى رأى حضرتك مستغل ؟ »

عجبت للوسيلة التى عرف بها بما دار بينى وبين معاونه ، وتسارعت دقات قلبى على الفور ، لكنى لم أتراجع وأجبت :

« هل لديك وصف آخر لما تفعل ؟ »

قال : « كنت اعتقد أنى أودى عملا انسانيا » ٠

قلت : « أسمع يا دكتور ٠ لقد تقاضيت منى خمسة جنيهات كاملة على خدمة لا تكلف غير قروش معدودة بالمستشفى الحكومى حيث مكانك الطبيعى ٠ فاين الانسانية فى ذلك ؟ »

قال متبسطـا : « عيـادة كهذه تتكلف كثيرا ٠ كما أنه لا يوجد مستشفى واحد يمكن الاطمئنان الى خدماته » ٠

قلت فى انفعال : « انت وأمثالك الذين خربتم المستشفيات الحكومية لصالح دكاكينكم الخاصة ٠ لقد تآمرتم لتنهبوا من يسوقه حظه العاثر اليكم » ٠

شد قامته وقال فى ترفع : « من حقى ان أحدد أجر الخدمة التى اقدمها حسبما يتراءى لى » ٠

قلت : « وأنا واحد ممن يحق لهم أن يحصلوا مجانا على خدمات سيادتك » ٠

رفع حاجبيه فى دهشة : « كيف ؟ » .

ملت على المكتب وقلت وأنا ألوح بذراعى السليمة فى اشارة شملته كما شملت أثاث الغرفة وأجهزة التكييف والموسيقى والتطبيب :

هذا كله لم يتحقق بفضل عبقريتك الفذة . فأنت وأمثالك تستفيدون من مجموعة من الامتيازات المتوارثة التى سلبت منى ومن غيرى ، ومن آبائى وأجدادى ، وآباء غيرى وأجدادهم على مر الزمن . وبالاضافة الى ذلك فأنت من الجيل الذى تعلم مجانا على حسابى وحساب غيرى » .

نهض واقفا وهو يرتعش من الانفعال :

« كفى . لا أريد مناقشتك . أرجو أن تغادر عيادتى فورا . فأمثالك لا حق لهم فى خدماتى » .

ضغط بيديه جرسا مثبتا الى مكتبه فقلت :

«انى اعترف بأنى أخطأت فى المجىء إليك . وحالما ترد الى الجنيه الذى دفعته اليوم سأذهب » .

قال بترفع : « ان وقتى ثمين وقد ضيعت جزءا كبيرا منه ، ولهذا فليس لك شىء عندى . وإذا لم تذهب الآن فسأطلب من الممرض أن يلقى بك الى الشارع » .

كان الممرض الذى ظهر عند الباب طويلا عريضا متين البناء . وخفت أن يتكرر معى حادث الأوتوبيس . فنهضت واقفا فى تثاقل وأنا أقول :

« سأذهب . لكنى سأعرف كيف آخذ حقى . فما زال هناك شرطة وقضاء » .

لم أكن أعنى ذلك بالطبع ، لكنها كانت صيغة لحفظ ماء الوجه ، أعانتنى على مواجهة نظرات الاستهجان التى استقبلنى بها المنتظرون فى الخارج ، والاهانات التى شيعنى بها المرض حتى أصبحت فى الطريق ٠

مشيت وأنا أغلى ولا أكاد أتبين شيئا ما يحيط بى ٠ ولم أنتبه الى نفسى الا عندما اصطدم أحد المارة بذراعى فـــآلمنى ٠ عندئذ اتخذت طريقى الى منزلى وأنا أتلمس الخطى بصعوبة بين أكوام السلع المستوردة وصناديق الكوكاكولا التى شغلت الأرصفة ، والأتربة والحفر والقاذورات التى لا يجد أحد الدافع لأزالتها أو حتى الشكوى من وجودها ٠

جعلت أنقل البصر بين الناس التى زحمت الطرقات ، مقبلة فى حماس على الشــــراء وقزقزة اللب وسماع الاغانى ٠ ولمت نفسى على أن رعبى من فكرة الألم قد عرضنى لهذا الموقف المهين لدى الطبيب ، بينما أن الأمر ــ بحكم المصير المقدر لى ــ لم يكن يتطلب كل هذا العناء ٠

اشتريت طعاما يكفينى لعدة أيام ، وقلت للبواب أن يبلغ كل من يسأل عنى بأنى سافرت ، ثم صعدت الى مسكنى ٠

كان ثمة أمور لابد من الانتهاء منها سريعا ٠ وقد أقبلت على انجازها رغم الآلام التى كان يسببهـــا تحريك ذراعـــى ٠ فتصفحت أوراقى القديمة ورتبتها ٠ وقضيت لحظات ممتعة ــ رغم ما شابها من أسى ــ فى مراجعة ما حققته من انجازات ، وما أثارته من صـــدى وتعليقات ٠ وأعانتنى الاســـتمارات الحكومية القديمة وبطاقات السفر والرسائل والايصالات والفواتير على تتبع المسيرة التى قطعتها منذ وقفت على قدمى ٠

وتوقفت عند صورة أبى ، وتمثلت التركة المثقلة من الآلام والسلبيات والاوهام التى خلفها لى ، والآمال التى علقها على ،

ولم يسعفه الزمن ليشهد تحققها • وحمدت الله أن هذا لم يحدث ، كى لا يرى مآلى •

وقضيت يوما كاملا أقلب فى مجموعة من الصور لأشخاص عبروا طريق حياتى ، ونساء ارتبطت بهن ، أو علقت عليهن آمالى فى مراحل مختلفة • وتمعنت فى العوامل التى تكسرت عليها هذه الآمال ، بحثا ـ للمرة الأخيرة ـ عن مكمن الخطأ •

ومن الطبيعى أن يثير هذا الاهتمام مشاعر معينة • فلجأت الى ما لدى من كتب اباحية ، واستعنت بكل من خيالى وذكرياتى ، لأعيش لآخر مرة تلك اللحظات المتوترة الرائعة ، التى تدب فيها الحياة فى كل خلية من خلايا الجسد ، وتصبح اللمسة لأى موضع منه مبعث رجفة ولذة متجددتين تلحان على التكرار •

وتفرغت فى اليوم التالى لمفكراتى القديمة • وما دونته بها فى لحظات مفعمة بالمعاناة ، والأمل ، بدت فى حينها كثيفة ، وان بدت الآن باهتة ، رغم ما خلفته من شجن • وطالعتنى على الصفحات التى بدأ لونها يتحول الى الصفرة ، المشروعات الكبيرة التى خططت لها بحماس فى حينها ، والاحباطات المتوالية التى واجهتنى •

وقابلتنى سطور عديدة نقلتها فى مناسبات مختلفة عن قراءاتى ، يتحدث أغلبها عن الطريقة المثلى للحياة • ولبثت ساعات أحدق فى هذه الابيات لماياكوفسكى ، التى قالها فى الغالب قبل قليل من نهايته المأساوية :

أقسم الا أتحدث بعد الآن باللسان المشين للتعقل والحصافة •

• • • •

الآن يمكن للمرء أن ينهض وينطق ، فتتردد كلماته عبر العصور والتاريخ والبشرية جمعاء •

ذكرني المصير الذى انتهى اليه قائلها بمأساتى ، فاستعدت ماجرى لى عن وقائع ، منذ أعددت نفسى لأول مقابلة مع اللجنة • وتتبعت مراحل التجـــربة ، وكيف فتحت عينى ـ تماما ـ على الحقيقة الشاملة المرعبة ، رغم أن ذلك تم بعد فوات الوقت •

وعندما استعرضت تفاصيل المقابلة الأخيرة ، ندمت على تخاذلى ، وعلى أنى فقدت أمام جماعة اللجنة ، الذلاقة والجرأة اللتين لازمتانى فى تعاملى مع أشخاص منفردين مثل القصير وعملاق الاتوبيس والطبيب •

شـــغلنى تحليل هذه الظاهرة ، حتى رأيت بعد امعـــان أن جذورها تضرب بعيدا فى الماضى ، منذ أول امتحان خضـــته وعمرى بضع سنوات ، وكل مرة بعده ، وقفت عاريا أمام الأعين الباردة اللامبالية لأشـــخاص ذوى بطش ، ينتمون الى عوالم مختلفة عن عالمى ، وتجرى حياة كل منهم فى مدار مستقل لايتوقف بأى شكل على نتيجة المواجهة القائمة بينى وبينهم ، عكس الأمر بالنسبة لى •

تمنيت لو وقفت أمام أعضاء اللجنة من جديد ، لأسمعهم كلمتى • وتخيلت نفسى أواجههم فى ثقة • فمضيت انتقى عباراتى فى دقة وعناية • وجرفتنى الرغبة ، فقمت من فورى ، ووضعت شريطا خاليا فى المسجلة ، وأقمتها فوق المكتب ، ثم وقفت أمامها، كما لو كانت لجنة •

تردد صوتى قويا ثابتا فى الغرفة الخالية وأنا أقول :

« لقد ارتكبت ـ منذ البداية ـ خطأ لا يغتفر • فقد كان من واجبى لا أن أقف أمامكم ، وانما أن أقف ضدكم • ذلك أن كل مسعى نبيل على هذه الأرض يجب أن يتجه للقضاء عليكم •

« وأسارع فأقول انى لست من السذاجة بحيث أتصور أن هذا الهدف لو تحقق سيكون نهاية المطاف ، اذ من طبيعة الأمور أن تحل مكانكم لجنة جديدة ، ومهما كان حسن نواياها وسلامة أهدافها ، فلن يلبث الفساد أن يتطرق اليها ، وتصبح عقبة بعد أن كانت علامة ، ويتحتم ازالتها بعد فترة من الوقت ، طالت أم قصرت .

« لكنى تبينت من استقرائى للتاريخ والحالات المماثلة ، أنه عن طريق هذه العملية بالذات ، عملية التغيير والاحلال المتكررة ، ستفقد جماعتكم تدريجيا ، ما لها من سطوة ، بينما ترتفع مقدرة أمثالى على مواجهتها والتصدى لها .

«الا أنى للأسف لن أكون هنا عندما يحدث ذلك ، بسبب المصير المقرر لى ، والذى يعود فى احد جوانبه الى طموحى ، الذى تجاوز امكانياتى ، وسعى المهووس وراء المعرفة ، وفى جانب آخر الى تورطى فى محاولة متهورة ـ لكنها كانت حتمية ـ لتحدى لجنتكم فى وقت ومكان غير مناسبين . لكن ما يخفف من أسفى هو ثقتى بما سيحدث ، مهما طال الوقت ، فهو منطق التاريخ وسنة الحياة » .

لم أبالغ فى كلمتى ، ولم يجرفنى تيار الحديث أمام المسجلة فالآن وأنا أتأمل كل شىء بعين متجردة ، وأحسب المكاسب والخسائر بنظرة شاملة ، أجدنى غير نادم على المصير الذى ينتظرنى . وبالمقارنة مع مصائر آخرين ـ من جيلى على الاقل ـ لا يوجد ما يعيبه . ما يبعث على الأسف حقيقة أن اليوم العظيم سيفوتنى . لكن هذا نفسه لم يكن ذا قيمة كبيرة ، طالما أنى موقن بمجيئه .

واذ وصلت الى هذه النتائج ، شعرت بصفاء عقلى غريب، وامتلأ صدرى بســـكينة نادرا ما عرفتها · ومرت بى لحظات من النشوة لم أعهدها الا عندما أصغى للموسيقى · وأردت أن يطول بى أمد هذه اللحظات حتى النهاية فلجأت الى ما لدى من تسجيلات موسيقية أعتز بها ، فقلبت بينها طويلا ، مستبعدا ما يتميز منها بالالحان العذبة الرقيقة ، كما لدى موتسارت وجريج ، أو يغلفه الشجن كمؤلفات شوبرت وتشايكوفسكى · وعفت نفسى بالمثل عن العوالم الساحرة لبرليوز وسكريـــابين ، والتأملية الرصينة لمـالر وسيبيليوس ·

وقع اختيارى أخيرا على أعمال سيزار فرانك ، الذى يتحول جلال الشـــك عنده الى نعمة اليقين ، وكارل أورف الذى يتفجر بالحيوية والصراع ، وبيتهوفن الذى يتغنى بالانتصار والفرح بعد الألم ، وشوستاكوفتش الذى يمزج كل هذا بالسخرية ·

كان الظلام قد حل ، فوضعت تسجيلات هؤلاء المبدعين العظام فى متناول يدى · وأخذت مكانى المفضل خلف المكتب ، عند الحائط الأخير لمسكنى ·

مضيت أنصت للموســـيقى التى ترددت نغماتها فى جنبات الحجرة · وبقيت فى مكانى ، مطمئنا منتشيا ، حتى انبلج الفجر ·

عندئذ ، رفعت ذراعى المصابة الى فمى ، وبدأت آكل نفسى ·

« انتهت »

ابريل ١٩٧٩ ـ ديسمبر ١٩٨٠
مصر الجديدة

للمــــؤلف

روايات :

++ **تلك الرائحة :**

الطبعة الاولى (صودرت) مكتب يوليو ، القاهرة ، ١٩٦٦

الطبعة الثانية (غير كاملة) دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

الطبعة الثالثة (غير كاملة) كتابات معاصرة ، القاهرة ، ١٩٧١

صدرت بالانجليزية مع أربع قصص قصيرة ، عن دار Heinemann اللندنية في سلسلة African Authors ١٩٧١ ، ثم أعيد طبعها في ١٩٧٨ ، وصدرت في سلسلة Arab Authors عن نفس الدار في ١٩٧٨ .

++ **نجمة اغسطس :**

الطبعة الاولى ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٤ .

الطبعة الثانية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

الطبعة الثالثة ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٠ .

رحــــلات :

++ **انسان السد العالي :**

(بالاشتراك مع كمال القلش ورؤوف مسعد) ، دار الكاتب العربي القاهرة ، ١٩٧٦ .

ترجمـــــة :

++ **العـــدو :**

للروائي الاميركي جيمس دروت ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة، ١٩٧٥ .

++ **الحمــــار :**

للروائي الالماني جونتر دي برون ، دار ابن رشد ، بيروت ، ١٩٧٧ .

++ **معونة أم استعمار جديد :**

للاكاديمي السوفييتى أرنولد أنوخكين ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ·

++ **ولد لا يعرف الخوف :**

للاخوين جريم ، الورشة التجريبية لكتب الاطفال (القاهرة) والمؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) ١٩٨١ ·

روايات علمية :

++ **عندما جلست العنكبوت تنتظر :**
دار الفتى العربى ، بيروت ، ١٩٨٠

++ **اليرقات فى دائرة مستمرة :**
دار الفتى العربى ، بيروت ، ١٩٨٠

++ **يوم عادت الملكة القديمة :**
دار الفتى العربى ، بيروت ، ١٩٨٠

يصدر قريبا

عن

مطبوعات القاهرة

- المقهى الزجاجى والآيام الصعبة

  روايتان **لمحمد البساطى**

- ليلة الغضب والدم

  رواية **لابراهيم عبد المجيد**

- مختارات من القصة المصرية **القصيرة**

  تقديم **ادوار الخراط**

رقم الايداع بدار الكتب ٨٢/٣٤١١

دار ماجد للطباعة
٢ ش بلال ـ القصيرين ـ الشرابية

إمتهنت رجولته أكثر من مرة ، لكنه ظل متشبثا بكل ما يبقيه راغبا فى الحياة . . .

لهذا قبل المهمة التى كلفته بها'' اللجنة '' . لكن البحث عن '' الدكتور '' قاده الى اكتشافات مثيرة ، وتفسيرات لالغاز أعيت الكثيرين ، مثل علاقة الملك خوفو السرية ببنى اسرائيل ، والعنة الجنسية ، والتعصب الدينى ، وصناعة الملايين ، وعودة الكوكاكولا !

كما قادته الى جريمة قتل .

. . . والى مصير لا يخطر ببال أحد !

رواية جريئة مشوقة ، ترصد بفنية عالية نمو العلاقات الاجتماعية والاقتصادية خلال مرحلة المد القومي وبعد انحساره ، وما أفرزته من طبقات وسلطات ، وتمزج المعقول باللا معقول والواقع بالكاريكاتير الساخر ، والحدث بالتأمل ، فتعرى الواقع الراهن على حقيقته .

أثارت روايته الأولى '' **تلك الرائحة** '' ، التى صدرت فى منتصف الستينات ، عاصفة من النقد إنتهت بمصادرتها ، بسبب خروجها على المألوف المتعارف عليه فى الكتابه التقليدية ، حيث تصبح أخطر شؤون الحياة ، من الجنس الى السياسة ، محظورات محرّمة .

وواصل '' **صنع الله ابراهيم** '' طريقه فى التمرد على الاوضاع البالية فى التجربة الاجتماعية والأدبية على السواء ، فقدم '' **نجمة أغسطس** '' ، المتميزة فى موضوعها وبنائها ، متخذا من بناء السد اله المجتمع وأزمته من ناحية ، ولتطوير ال أخرى ، ثم أتبعها بعدد من الروايات إستحدثت طريقا جديدة فى الكتا

Bibliotheca Alexandrina
0647227

مطبوعات

٧٥ قرشاً